روايات مصرية للجيب

9

الفصيلة

سافارى

مقدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سافريَة) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنا الذى سنقابله دومًا ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لا تنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لا يمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًّا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون) ..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

* * *

أوّل الفصول

ويحكى عن زيادة مريبة للمرضى الأوروبيين فى (سافارى)

١٨ أكتوبر عام ١٩٩٧
الساعة العاشرة صباحًا

(سافارى) من جديد ..

الآلة العملاقة التى لا تكفّ عن الهدير ، والتى يدفع العالم ثمن وقودها وزيتها وتروسها ، تلاحق الأوبئة والأمراض فى غرب (إفريقيا) .. ومثلها آلات أخرى فى عدة بقاع من القارة السوداء التعسة ..

(سافارى) من جديد ..

وطبيبنا المصرى الشاب (علاء عبد العظيم) ما زال يتلمس مواضع قدميه فى عالم طب المناطق الحارّة الشائك الغامض .. إنه فى سبيل تحقيق الذات ، لكنه لم يحققها بعد .. ربما بعد أعوام حين يغدو أكبر سنًا وأكثر حكمة ، يمكنه أن يسترخى فى مقعده ويقول بحنكة : أنهكتنى رحلة البحث عن ذاتى ..

لكنه الآن ما زال شابًا متحمسًا متوترًا ، لا يكف

عن التعلم وارتكاب الأخطاء وتلقى اللوم وأحيانًا المديح ..

إنه يحيا وسط غرباء ... يعيش فى جوٍ مترجَم بالكامل .. ولربَ غرفة يدخلها يحسب فيها أنه فى (ميونيخ) ، أو غرفة أخرى تشعره أنه فى (مانيلا) ، أو غرفة ثالثة تشعره أنه فى (باريس) .. لكنه مصرى جدًا .. عربى جدًا .. ما زال يشعر بالحنين للتنزه على (الكورنيش) مع رفاقه ، والشجار مع أخيه الذى اقتبس بعض العطر من زجاجته ، وسماع صوت الشيخ (رفعت) فى رمضان فى لحظات الترقب السابقة لأذان المغرب ..

سيعود يومًا إلى (مصر) ..

متى ؟ ربما بعد عام أو عامين أو عشرين عامًا لو عاش، لكنه سيعود .. فقط سيعود أكثر حكمة وعلمًا.. لن يكون واحدًا من آلاف الأطباء الذين لا يميزهم شىء .. سيكون عالمًا خبيرًا ، ولربما كان لمنصبه اسم مثير غامض مثل (مستشار الصحة العالمية لشرق البحر المتوسط) أو (خبير الأوبئة بمنطقة اليونيسيف) أو (أستاذ زائر بمركز الـ CDC) لو كانت هناك حقًا مناصب بهذه الأسماء !

وطبعًا لا داعى للقول أن هذا الطبيب هو أنا ..

★ ★ ★

فى استقبال حالات الطوارئ كان هناك كثير من الصراخ ..

كنت هناك مع الطبيب الألمانى (هانس) - وهو حديث الخبرة مثلى - حين جاءت الإسعاف حاملة رجلين ..

كانا فى حالة سيئة حقًا ، لا يكفان عن الأنين والتلوّى ، ويبدو - كما قال المسعف - أنهما أكلا أو شربا شيئًا محليًا لم تتحمله أمعاؤهما الأوروبية .. نعم .. لقد كانا أوروبيين أو غربيين على الأقل ..

كان أولهما قوى البنيان يرتدى قميصًا أخضر رثًا متسخًا على اللحم ، وسروالا عتيقًا من مخلفات الجيش ، وله لحية شقراء مشعثة تساعد - مع عينيه الخضراوتين - على إعطائه سمت المذءوبين فى تلك الأفلام القديمة ..

أما الآخر فكان يرتدى (بول - أوفر) ذا خطوط عرضية ، وله شعر حليق قصير ، وأنف قوى معقوف ، وله ذات البنيان القوى الذى يشعرك أن الراقد على النقالة ديناصور أو ثور ..

- « أين وجدتموها ؟ »

قال المسعف الذى يتكلم الفرنسية :

- « قرب (أوديجيللا) .. »
- « هل معهما أوراق ؟ »
- « لا .. وهما لا يتكلمان إلا الإنجليزية .. »

كانت (أوديجيللا) - إن لم أكن مخطئًا - قرية فى الشمال الغربى ، وسط منطقة المستنقعات التى تتجه ببطء إلى بحيرة (تشاد) فى الشمال الشرقى ، وبمعنى آخر كانت قريبة جدًا من (نيجيريا) ، ولو كنتم ممن لا يملكون موهبة تخيل الاتجاهات مثلى ، يمكنكم الرجوع إلى أقرب خارطة لـ (كاميرون) ..

فى مناطق كهذه يصعب أن تجد من يتحدث الفرنسية لأن الإنجليزية هى اللغة الأساسية .. ولسوف تجد أن أكثر السكان مسلمون ، والمسلمون فى (الكاميرون) يمثلون ٢٢٪ من السكان ، بينما يمثل المسيحيون ٥٣٪ منهم ، ويمثل الديانات الإفريقية العجيبة - إياها - النسبة الباقية ، وللأسف تقع (أنجاوانديرى) فى منطقة ذاخرة بديانات (الداوا) والـ (أنكلانكولو) .. إلخ .. مما لا يجعل الحياة أكثر بهجة ..

ملت على أول الرجلين - الملتحى - وبالإنجليزية سألته :

- « ما اسمك ؟ »

بصوت كالفحيح ، قال :

- « (تشارلز) .. (تشارلز إيمرى) .. (أوستراليا) .. »
- « وزميلك ؟ »
- « (جاك) .. نفس الشىء .. »

إذن هما ليسا أوروبيين .. ليست إنجليزيتى بالكفاءة التى تسمح لى بتمييز اللكنات ، وتمييز (التطجين الأسترالى) كما يسمونه ، لكننى على الأقل استطعت تمييز لكنة غريبة بعض الشىء عما اعتادته أذناى فى الإنجليز..

- « وبماذا تشعر ؟ »

اعتصر بطنه وضغط على أسنانه :

- « بطنى ! ألا يبدو هذا واضحًا ؟ »

حقًا يبدو هذا واضحًا .. وإن كنت عاجزًا عن تمييز شىء بعينه ..

تحسست بطنه بكفى المفتوحة مرارًا ، فكان يئن من حين لآخر ، وإن كان يفعل هذا مغمض العينين ،

وهى حيلة قديمة تعلمتها من أستاذ جراحة مصرى شيخ .. مريض الزائدة الدودية الحقيقى ينظر لك طيلة الفحص بعينين متوجستين تنتظران الألم برعب ؛ أما من يدّعى الإصابة بالتهابها أو يحسب ذلك بسبب الهستيريا ، فيغمض عينيه طيلة الفحص ..

قاعدة لا بأس بها ، وقلما تفشل .. لكن ثقتى بها لا تصل إلى صفع هذا الرجل وطرده باعتباره مدعيًا ..

المريض الآخر - (جاك) - كان فى حالة مماثلة ، والتشخيص إما التهاب معوى شديد أو ادّعاء أو وهم ..

إن طيف الأعراض المرضيةَ التى يمكن أن ترى بها (مريضًا سليمًا) لواسع جدًا ، ويتوقف على مدى إدراك المريض الواعى لسلامته .. لهذا يبدأ الطيف بالتمارض الصريح - كالتلميذ الذى يحاول تأجيل الامتحان ، وخداع الطبيب - مرورًا بمتلازمة (منخاوزن)(*) وانتهاءً بالهستيريا ، وفيها لا يدرك

(*) (منخاوزن) : بارون ألمانى اشتهر بالكذب وتلفيق القصص ، ومتلازمة (منخاوزن) - بالتالى - تعنى المريض الكذوب مدمن المستشفيات ، حيث يحيّر الأطباء بأعراض غريبة لا تنتهى ، وهو لا يجد راحته إلا فى المستشفى محاطًا باللون الأبيض !

المريض بتاتًا أنه سليم .. بل هو صادق تمامًا فى شكواه الزائفة ..

لكن فى (سافارى) لا مجال لهذه الاستنتاجات الذكية ، ولو اتهمت أحدهما بالتمارض ، ثم اتضح أنه مريض حقًا فالويل لى .. وليس الطرد هو أسوأ ما سيحدث آنئذ ..

قمنا بأخذ بعض عينات الدم ، ثم قمنا بشحنهما إلى قسم الأمراض الباطنية حيث يبقيان تحت الملاحظة ..

وبعد ساعة جاء مريض آخر على قدميه ..



١٨ أكتوبر عام ١٩٩٧
الساعة ١٠,١١ صباحًا

كان زنجيًا ضخمًا من الطراز الذى لا تراه فى (إفريقيا) ، ولكن فى لاعبى كرة السلة الأمريكيين : الرأس أصلع أملس ، والوجه عتل صفيق ، وله ذراع فى حجم وثقل فخذى ، تطلّ عارية من قميص بلا أكمام .. وكان يحمل حقيبة جلدية هائلة الحجم على ظهره ، ويعرج قليلاً ..

سأل بالإنجليزية الغليظة :

ـ « هل من أحد يتكلّم الإنجليزية هنا ؟ »

أشرت له كى يجلس، فحرّر الحقيبة وألقاها أرضًا ، ثم تحسس جبينه وأنّ فى وهن .. سألته :

ـ « صداع أم ارتفاع فى درجة الحرارة ؟ »

نظر بعينيه الصفراوتين إلى المكان من حوله ، ثم غمغم :

ـ « صداع يا رجل .. صداع .. لقد داهمنى القىء ثلاث مرات فى ساعة .. »

ولا أدرى سرّ حبّ الزنوج جميعًا للمناداة بـ (يا رجل) .. لكن شكواه على كل حال تضع احتمالات مقلقة كثيرة هاهنا فى (الكاميرون) .. أى طبيب سيفكر فى ارتفاع ضغط الدمّ أو أورام المخ .. أو ... أو ... لكن طبيب (سافارى) لا ينسى أبدًا الملاريا المخية ومرض النوم .. كلها تسبب الصداع والقىء ..

سألته وأنا ألف جهاز الضغط بصعوبة بالغة حول جذع الشجرة الأسود :

ـ « هل أنت أمريكى ؟ »

قال وهو يشهق طلبًا للهواء :

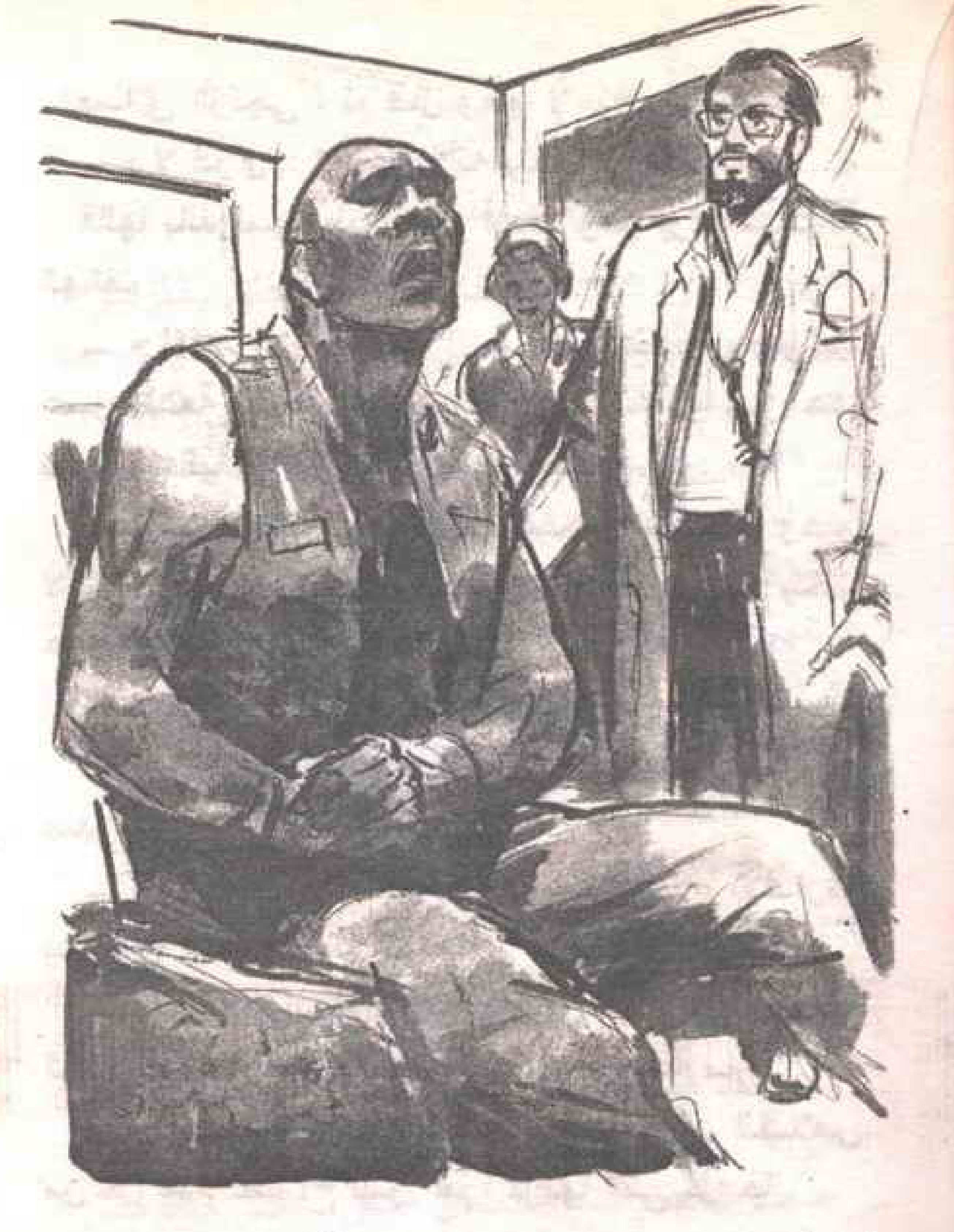
ـ « بل إنجليزى .. (جيمس ماكجراث) .. »

واصلت النفخ ، وسألته وأنا أستعد للسماع :

ـ « أنت هنا للسياحة ؟ »

ـ « طبعًا يا رجل .. لم آت للبحث عن جذورى .. »

ـ « ضغطك على ما يُرام على كل حال .. وهل تتعاطى أقراص الوقاية من الملاريا بانتظام ؟ »



وقبل أن يواصل الكلام تقلص وجهه ، وأطلق صرخة عاتية مريعة ، صرخة لا يمكن صدورها من حنجرة غليظة كهذه ..

- « لك أن تراهن على ذلك .. لا أريد كائنات قذرة فى دمى .. »

وقبل أن يواصل الكلام تقلص وجهه ، وأطلق صرخة عاتية مريعة ، صرخة لا يمكن صدورها من حنجرة غليظة كهذه .. والحق أن صرخته جعلتنى أفقد صوابى وقدرتى على التركيز .. هذا الفتى يتألم حقًا وبشدة ..

صرخ (هانز) وقد ترك ما كان يقوم به .

- « ماذا عندك يا (علاء) ؟ »

- « صداع .. يبدو أن رأسه ينفجر .. »

- « إذن أرسل فى طلب د. (جابرييل) حالاً .. لربما كنا بصدد انفجار شريانى فى المخ .. »

ولم يترك لى الصراخ المتكرر فرصة للاعتراض .. أمسكت بالهاتف وطلبت استدعاء د. (جابرييل) مختص الأمراض العصبية الكاميرونى - هل تذكرونه؟ ووضعت السماعة ورحت أرمق الفتى المولول ، عاجزًا عن عمل شىء ..

أخيرًا - بعد ثلاث دقائق أو ثلاثة قرون - جاء (جابرييل) غارقًا فى العرق كعادته ، فتفحص

العملاق الزنجى ، ثم قال وهو لا يبعد عينيه عنه :
ـ « لا أدرى.. لا أعتقد أنه يتألم إلى هذا الحدّ .. »
قالها بالفرنسية طبعًا ، ثم أردف وهو يرفع سمّاعة الهاتف :

ـ « لكنى لن أجازف .. سآخذه عندى ، وأرتب عمل أشعة مقطعية على المخّ الآن .. لو كان هذا تمددًا وعائيًّا فى طريقه للانفجار فنحن ..... »

وجاءت الناقلة ، فتمدّد العملاق عليها ، وهو لا يكفّ عن الصراخ ، ولاحظت مبتسمًا أنه لم يتخلّ عن حقيبته .. قلت له ضاحكًا :

ـ « يمكنك تركها هنا ، وسنضعها فى الأمانات.. »

من بين أسنانه البيضاء هدر ، وهو يضمها إلى صدره :

ـ « لا .. لا أمانات يا رجل .. هؤلاء الأفارقة يسرقون السيّاح طيلة الوقت .. هذا عملهم ! »

كأنه ـ الأحمق ـ لم يكن إفريقيًّا يومًا ، قبل أن يحمله البيض فى قاع سفينة ليكون عبدًا فى مزرعة ما ..

وسرّنى رحيله على الناقلة مبتعدًا .. إن الخلاص من كل هذا الصراخ ليس أمرًا كريهًا على كل حال ..

* * *

١٨ أكتوبر عام ١٩٩٧
الساعة ١,١٥ بعد الظهر

فرغت من الغداء ، وأنا أشعر بالإرهاق يغمرنى .. لكن يومى لم ينته بعد .. بل ـ الأحرى ـ هو لم يبدأ بعد.. مازالت أمامى جولة كريهة فى عنابر (الإيدز) ، ثم القيام بالغيار على الجروح المتقرحة فى قسم الجراحة .. هذا هو الجدول الذى وضعوه لى اليوم ..

جاءت (برنادت) فجلست جوارى حاملة صينية غدائها ، وحيتنى بأسلوب (التشنيكة) الأثير لها مع (هاى) ، فهززت رأسى بمعنى أننى سعيد جدًّا لرؤيتها لكننى عاجز عن تحريك أطرافى ..

ـ « تبدو مُرهقًا أكثر من اللازم .. »

ـ « سهر طويل .. وطعام قليل .. وعمل كثير .. هذا كل شىء .. »

ـ « لدىّ أخبار طيبة لك .. »

ـ « ما هى ؟ »

ـ « لقد انتدبونى لمعهد (باستير) للبحوث الطبية الحيوية .. »

صعد الطعام مع الحمض إلى أعلى حلقومى ، وبعسر تساءلت :

- « فـ .. فى (فرنسا) ؟ »
- « لا يا أحمق .. بل فى (ياوندى) .. أنت تعرف أن هذا المعهد موجود هناك .. هيه ! لا تتظاهر بالغباء ! مستحيل أنك لا تعرف .. »
وضعت كوب (الكولا) الورقى على المنضدة ، وقلت :
- « حسن .. لم أكن أعلم .. والآن علمت .. ما المشكلة ؟ »
- « ليكن .. كنت أحسبك أكثر وعيًا بما يدور حولك .. ألن تقدّم لى التهانى ؟ »
- « كم تلبثين هناك ؟ »
- « لا أدرى .. ربما شهرًا أو شهرين .. وربما أبقى هناك للأبد لو راقوا لى ، وراقت لهم ! »
نظرت لها فى غباء .. تبًا له من يوم أسود ! هى بالتأكيد تتلاعب بى لتتسلى بأمارات اللهفة والحزن على وجهى .. كلهن يفعلن هذا .. كلهن يتكلمن عن الرحيل طيلة الوقت ولا يفعلن ..
قلت لها فى حذر :
- « أرجو أن تحبى الحياة هناك.. ومتى ترحلين؟»
- « بعد يوم على الأكثر .. إننى لشديدة الحماس حقًا .. إن (ياوندى) مدينة جميلة حقًا ومتحضرة ،

تختلف عن الأدغال التى تحيط بنا هنا .. هل تعرف أنها كانت أول مقرّ لعصبة الأمم ؟ »
بدا لى من الغباء أن أبدو غبيًا مرتين ، فهززت رأسى فى سأم :
- « طبعًا .. طبعًا .. هذه المعلومات قد صارت مملة .. »
ثم نهضت وقد قررت أن أنصرف ، حتى لا تتلذذ بعصبيتى وجهامتى .. واضح أن كلامها حقيقى ، ومن الغريب أنها رتبت كل شىء للرحيل ـ ولا بد أنها تعرف منذ أسبوعين على الأقل ـ دون أن تخبرنى بشىء من هذا .. كلما أقنعت نفسى أننى قريب منها جدًا ، وجدت أنها لا تشعر بشعور مماثل ، ولعل رحيلها خير بعد كل شىء ..
قالت فى مرح وهى تلتهم طعامها :
- « سأرسل لك خطابًا ، فأنا لست متأكدة من عنوانى هناك .. »
غمغمت بكلمات ما دون أن أدير وجهى .. ربما قلت :
- « طبعًا .. أنا بالانتظار .. »
أو أى شىء من هذا القبيل ..

* * *

١٨ أكتوبر عام ١٩٩٧
الساعة ٤,٣٠ بعد الظهر

كدت أفرغ من جولتى فى عنابر (الإيدز) ، هذه المرّة مع صديقى (بسّام) .. وقد أضفى هذا بعض السلوى على مهمةً كئيبة بطبعها كريهة .. كان (بسّام) يمرّ بطور (عدم التكيّف) المعهود ، حين يبدأ المرء فى الحنين إلى وطنه ، ويشعر بالضياع والسُدى ، مع شعور تامّ بالجهل وعدم الكفاءة أمام كل هؤلاء العلماء الفطاحل وكل الأمراض المبهمة هاهنا .. لقد مررت بهذا الطور من قبل ، وعرفت أن الجميع مرّ به .. فإن لم تستقل وتعُد لبلادك ينته كل هذا خلال شهر أو أكثر ، ويبدأ شعور جديد من الغرور :

أنا لا بأس بى على الإطلاق .. إنهم مجموعة من الحمقى هاهنا ..

كنت منهمكًا فى إخباره بكل هذا ، حين مررنا

بفراش عليه رجل أوروبى ضخم الجثة ، على ذراعيه العاريتين وشم كثير ، وفى أذنه قرط متدلّى ، وشعره الأشقر الطويل معقوص خلف رأسه فيما نسميه (ذيل حصان) .. وكان منظره غريبًا لسببين : أولاً : هو لا يرتدى زىّ المرضى ثانيًا : هو لا يبدو مريضًا على الإطلاق ..

تفحصت بطاقته فلم أجد شيئًا سوى اسمه : (ستيفن جالاجر) .. أمريكى .. السن خمسة وثلاثون عامًا .. والطبيب المعالج هو (آرثر شلبى) نظرت للرجل .. كانت له نظرات شرسة لا تكف عن ملاحقتى .. سألته :

ـ « من أين أنتَ ؟ »

بلهجة ممطوطة تطيل المقاطع المتحركة ، قال :

ـ « من (الولايات) .. (فلوريدا) .. »

لست خبيرًا باللهجات ، لكنى تعلمت جيدًا أن أميّز لهجة الجنوب الأمريكى الممطوطة حين أسمعها ، وذلك من الأفلام بالطبع ..

ـ « مِمّ تشكو بالضبط ؟ »

ـ « حمى منذ شهر .. فقدان وزن منذ شهر .. إسهال منذ شهر .. »

ـ « هل أنت سائح ؟ »
ـ « لك أن تراهن على هذا .. »
وأراح رأسه على ساعديه القويين فى تحدٍ ..
لم يفهم (بسام) ما قيل بالإنجليزية ، فترجمته له إلى العربية .. قال هامسًا فى نبرة مَنْ فهم كل شىء :
ـ « هذه أعراض توحى بـ (الإيدز) بشدَة .. »
ـ « بل توحى به أكثر من اللازم .. كأن هذا الرجل يتلو علينا نشرة الـ (CDC) التى وضعت معايير الاشتباه فى الـ (إيدز) .. »
هنا سمعنا من يهتف فى مرح :
ـ « آها ! الشابان العربيان يحاولان أن يتعلما شيئًا ! »
ونظرت للوراء لأجد (شلبى) ـ بكسر الشين وتسكين اللام ـ أستاذ طب المناطق الحارة قادمًا ، وهو يرفع خصلة الشعر الأشيب عن عينيه .. ثم إنه اتجه لمواطنه فقرع كفه بكفه على طريقة لاعبى السلة ، وهتف فى مودة كأنه يلقى صديقًا قديمًا :

ـ « كيف حالك يا (ستيف) ؟ أعطنى خمسة يا (جدع) ! »(*)

ولى قال (بعد ما أخذ الخمسة) :
ـ « كلانا أمريكى .. وكلانا نحب (اليانكيز) .. من الغريب أن تجد من يحبَ الكرة فى هذه الأدغال الحمقاء .. لقد سحبنا بعض الدم من ذراع (ستيف) لإجراء اختبارات (الإيدز) وخلافه ، ولسوف يتضح الأمر هذا المساء .. »
سألته بالفرنسية التى لا أعتقد أن المريض يفهمها:
ـ « بروفسور (شلبى) .. هل كل من يشكو من أعراض مماثلة ، جدير بأن يحتل فراشًا هاهنا ؟ أنا نفسى مصاب بالإسهال منذ أسبوعين .. »
ابتسم فى خبث وأشار إلى المريض، وبالفرنسية قال :
ـ « ليس عندما يبدو مظهرك كهذا .. قرط فى الأذن وشعر معقوص ووشم على الذراعين .. إنهم يسمون هذه .. بـ (علامة سان فرانسسكو) ، وهى تجعل شكَك فى (الإيدز) مُضاعفًا .. »

(*) أى (صافحنى) بالعامية .

ـ « هل تعنى أنه ؟ »
ـ « منحلّ أخلاقيًا ؟ غالبًا .. ولربما هو مدمن مخدرات كذلك .. وحين يُصاب مريض يحمل علامة (سان فرانسسكو) بالإسهال وفقدان الوزن ، فأنا لا أتردّد طويلاً قبل وضعه فى عنابر (الإيدز) ، وحتى يثبت العكس .. »
هززت رأسى وقد فهمت ..
حقًا (شلبى) لا يفعل شيئًا دون أن يكون لديه سبب واضح ، وعلامة (سان فرانسسكو) هذه معلومة لا بأس بها لن أنساها أبدًا .. بقى أن أذكر أن أول وصف لمرض (الإيدز) فى التاريخ جاء من (سان فرانسسكو) ، وبالتحديد من مدمنى المخدرات هناك .. أما عن وشم الجسد فهو من الطرق المحببة للإصابة بالتهاب الكبد الفيروسى و (الإيدز) ..
قبل أن ننصرف ، همست فى أذن (شلبى) :
ـ « هذا الرجل يفهم الفرنسية.. أقسم على هذا ..»
ـ « (ستيف) ؟ إنه جاهل كقملة .. »
ـ « بل يفهمها .. إن النظرات لا تكذب فى هذا الصدد .. »

* * *

١٨ أكتوبر عام ١٩٩٧
الساعة ٨,٤٥ مساء

ألن ينتهى هذا اليوم أبدًا ؟
هأنذا أجرّ قدمىّ جرًا بين أسرّة المرضى فى قسم الجراحة ، يساعدنى (بسّام) الذى لم يكن مشغولاً هذا المساء ، فتطوع بمعاونتى ..
وتكفل الإرهاق بجعلى عاجزًا حقًا عن تمييز أى المرضى رأيت ، وأيهم لم أره .. كل الجروح قد تداخلت فى ذاكرتى ، وكلها تتشابه ..
لكن مشهد تلك الساق لم يكن مما يمكن نسيانه بسهولة ..
تسميها الكتب الطبية باسم (غنغرينا الغاز) .. ولها قصة طويلة معقدة ، لكننى سألخص الموقف كما يلى : ساق متآكلة ورائحة لا توصف وجُرح لم يلق العناية الكافية ..

كان مريضنا رجلاً أوروبيًا طالت لحيته السوداء المختلطة بالشيب .. وله وجه قوىّ حقًا ، كأنما اعتاد الأمر والنهى طيلة حياته .. فى تعالٍ وكبرياء .. يجلس فى الفراش مادًا ساقه لى ، وفى يده لفافة تبغ مشتعلة ..

قلت له فى برود :

ـ « التدخين ممنوع .. »

تردّد هنيهة ، ثم دفن اللفافة فى كوب ماء جوار فراشه ، وبابتسامة دافئة قال وبقايا الدخان تخرج من منخريه :

ـ « معذرة .. فلم يقل لى أحد هذا .. إنها تنسينى الرائحة على كل حال .. »

ـ « إذن هم مخطئون .. هل أنت إنجليزى ؟ »

ـ « (نيوزيلندى) .. (روجر مورلاند) .. »

ثم بقلق حقيقى ، أشار إلى ساقه ، وتساءل :

ـ « هل .. هل ستُشفى ؟ »

كان منظر الساقِ مريعًا ، ولو كنت جراحًا مؤهلاً لقمت ببترها حالاً .. لكننى أعرف المعجزات التى تصنعها الجراحة الحديثة .. قلت له :

ـ « بالتأكيد .. ما دمت تتعاطى المصل المضاد للسمّ ، وتخضع للغيار المنتظم .. »

من يدرى ؟ ربما كان هناك حل لا أعرفه ينقذه من الإعاقة ..

سألته وأنا مستمر فى مهمتى الكريهة (لو كان بيدى لطلبت منه إشعال لفافة تبغ أخرى ، علها تزيل هذه الرائحة برائحتها الكريهة الشنيعة) :

ـ « متى حدث هذا الجرح ؟ »

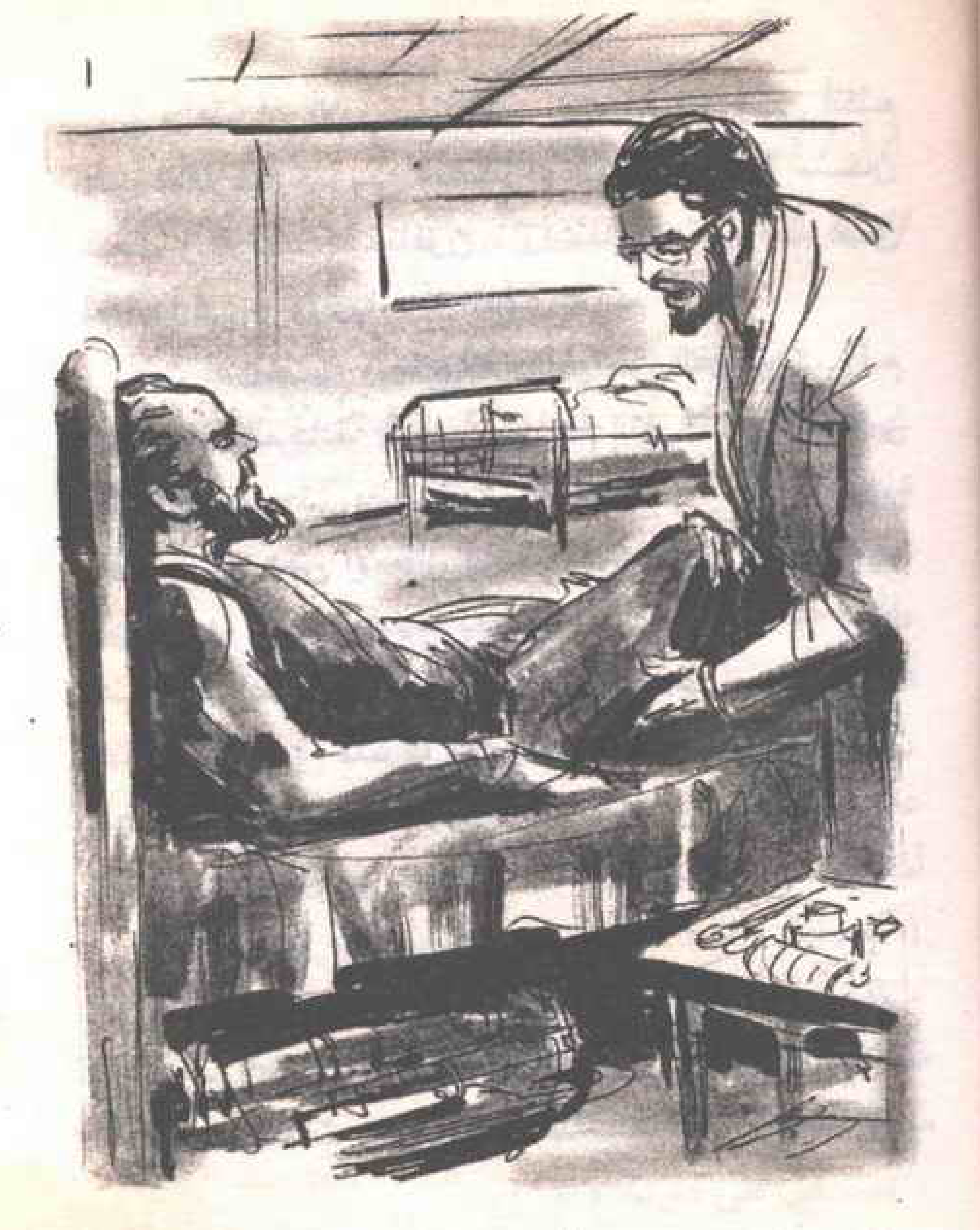
ـ « لم أعد أذكر .. لكن قدمى انغرستَ فى فخّ للنمور ، وتمزقت تمامًا .. »

ـ « أنت صياد ؟ »

ضحك طويلاً محاولاً تناسى آلامه ، وقال :

ـ « يا بنى لم يعد من مكان فى (إفريقيا) ، يمكن ممارسة الصيد فيه دون أن يقبض عليك رجال المحميات .. لو أنك حاولت ضرب بعوضة بكفك لوجدت نفسك فى السجن بتهمة تبديد الحياة الطبيعية .. لقد ولّت أيام حملات (السافارى) والحمالين الوطنيين .. تلك كانت أيام سعد ! »

ـ « لكن هذا لم يجب على سؤالى .. »



ونظرت بطرف عينى إلى أسفل فراشه ، فوجدت حقيبة هائلة الحجم موضوعة هناك ، وإن ظلت بارزة للعيان ..

- « إن قرى (الباميليك) تذخر بهذه المصايد لحماية حدودها .. ومن المستحيل على من ليس من (الباميليك) أن يعرف مكان الشرك .. »

- « لحسن الحظ أن الفخ لم يمزقك .. »

- « إنه حظ كلب الصيد العجوز .. »

الحق إنه كان لطيفًا ، وكان يتحدّث بخبرة من عرف (إفريقيا) حقًا ..

ونظرت بطرف عينى إلى أسفل فراشه ، فوجدت حقيبة هائلة الحجم موضوعةً هناك ، وإن ظلت بارزة للعيان ..

قلت وأنا أضمّد الجرح :

- « يمكنك الاحتفاظ بحقيبتك فى الأمانات .. »

ابتسم والتمعت عيناه :

- « إن أشيائى الشخصية بها ، ومالى كذلك .. ولقد تعلمنا ــ نحن الغربيين ــ ألا نثق فى الأفارقة كثيرًا .. معذرة لغلظتى ، لكنك لا تبدو لى إفريقيًا .. أعتقد أنك عربى .. »

- « أنا مصرى .. وقد اعتدنا أن نعتبر أنفسنا أفارقة .. »

- « هلم إن الأمر يختلف .. أنت تعرف أننى أتكلم عن الأفارقة جنوبى الصحراء الكبرى .. إن سكان شمال (إفريقيا) يختلفون ، وأعتقد أن تجارة الرقيق لم تبدأ فى (أوروبا) بل بدأت عندكم ! »

كنت قد اعتدت سماع هذا اللغو من الغربيين ، ولم أعد أهتم بالمجادلة فيه .. سياسة التفرقة بين العربى والإفريقى ، حتى يظلّ الإفريقى متشككًا فى العربى أبدًا .. لقد حكى الأستاذ (أنيس منصور) عن الطبيب الهولندى الذى نصحه بعد مصافحة الأفارقة (لأن هناك أمراضًا رهيبة تنتقل بالمصافحة) ، ثم أدرك كاتبنا أن هذا شَرك مقصود ، لأن الامتناع عن مصافحة الأفارقة إهانة ما بعدها إهانة .. ومعناها : أن العربى أسوأ من الغربى وأكثر تعاليًا ..

ابتلعت أفكارى ، وأنهيت مهمتى .. وكان (بسّام) قد انتهى بدوره ، فحييت النيوزلندى بهزّة رأسى ، وغادرنا العنبر ..

لقد استحققت ـ بجدارة ـ ساعات النوم القادمة ..

* * *

١٨ أكتوبر عام ١٩٩٧
الساعة ١٠,٠٠ مساءً

فى الجناح الذى يقيم به الأطباء ، كنت متجهًا إلى غرفتى داعيًا اللّه (عزّ وجلّ) ألا أقابل أحدًا مهما كان .. رأيت د. (جابرييل) الكاميرونى واقفًا يتكلم فى سماعة الهاتف الموجود بالممر ، وكانت ذقنه ملوثة بالصابون مما أكد لى ـ أنتم تعرفون ذكائى ـ أنه كان يحلق ذقنه حين جاءته المكالمة ..

كان يحمل المنشفة على ذراعه ، ويمرّر طرفها على ذقنه من آن لآخر وهو يردّد دون عبارات أخرى :

- « هم م م .. هم .. هكذا ؟ هم م م ؟ »

فلما رآنى حيّانى دون اكتراث ملوّحًا بيده ، وواصل الكلام .. ثم وضع السمّاعة وبدا عليه الشرود .. سألته على سبيل المجاملة :

- « هل هى كارثة ؟ »

- « آه لا .. لا .. هناك مريضان أوروبيان جاءا الآن فى غيبوبة كاملة ، وقد فشلت كل محاولات الإفاقة المعتادة .. »

- « إن الأوروبيين يمرضون كثيرًا هذه الأيام .. بالمناسبة ماذا عن مريض الصباح ؟ المصاب بالصداع إياه .. »

جفف ذقنه بالكامل ، وقد عزم على قطع حلاقته ، وقال :

- « كما توقعنا .. لا شىء على الإطلاق .. الأشعة المقطعية سليمة تمامًا .. لكننا لم نطرده بعد .. »

- « ولمه ؟ »

- « إنه ما زال يصرخ من هول الصداع .. غدًا سأرى رأى د. (البرتوبتسو) ورأى د. (ليفى) لا بد من استبعاد وجود التهاب بالجيوب الأنفية أو ارتفاع فى ضغط العين .. إن التخلص من مريض يصرخ لأمر عسير بعض الشىء حتى لو كان شديد الإغراء .. »

تثاءبت وسألته :

- « هاآآه ؟ ماذا عن التمارض ؟ »

- « التمارض ؟ كل شىء يؤكد أن الرجل متمارض ، لكنى لن أقسم على هذا قبل أن أستبعد كل احتمال آخر .. »

والحقيقة هنا هى أن المتمارضين يفتضح أمرهم سريعًا .. لن يلبث الرجل أن يملّ الصراخ والأنين ، أو يجد نفسه منفردًا بلا ضرورة للتصنّع .. أو ينسى التمثيل فى اللحظة التى تخاطبه فيها ..

لكن المشكلة ليست مشكلتى لحسن الحظّ ..

وهكذا دخلت إلى غرفتى ، بينما عاد (جابرييل) ليرتدى ثيابه ومعطفه ليلحق بالكارثتين اللتين تنتظرانه فى استقبال (سافارى) ..

وفى الفراش خطر لى أن عدد الغربيين الذين رأيتهم اليوم قد صار سبعة ، إذا حسبنا مريضَى (جابرييل) الأخيرين ..

هذا .. ها اااااااو م م .. غريب .. ها آآآآ آه .. غريييب ..

خخ خ خ خ خ خ !

* * *

١٩ أكتوبر عام ١٩٩٧
الساعة السابعة صباحًا

دقّ جرس المنبّه كأنما يهز جذع مخى هزًا لينزعه من موضعه ، فمددت يدًا غاضبةً أخرسه بها ، وحركت أطرافى .. كم أنا مُرْهَق !

يقولون : إن المرض الوحيد الذى يصحو فيه المريض مرهقًا بعد نوم تسع ساعات كاملة هو الاكتئاب .. كل الأمراض الأخرى ـ بما فيها الدرن والسرطان ـ يصحو مريضها من النوم أفضل حالاً ..

وأنا مكتئب حقًا .. الوتيرة الرتيبة للحياة ـ برغم ما فيها من مخاطر ـ والافتقار للأهل والأصدقاء ، كلها أشياء لا تثير السعادة فى النفس ..

للحظة خطر لى أننى أتمنى لو مرضت قليلاً ! بعض المرض ـ غير الخطير طبعًا ـ سيسمح لى بالراحة ، ويضفى بعض الإثارة على حياتى ، ويجعلنى أظفر ببعض الاهتمام فى هذا العالم البارد الثلجى ..

لكننى فى أتم صحة ، ولا يبدو نذير مرض فى الجوّ .. ثم إننى لن أتمارض حتى لا أمرض فأموت ، ولو حاولت فمن السهل أن يفتضح أمرى ، كما سهل علىّ فضح أمر أولئك الغربيين غريبى الأطوار ..

وشعرت بحنين لأيام التدليل السابقة مع والدتى .. حين كنت لا أصحو قبل العاشرة صباحًا ، وأغضب حتى الجنون لأن الشاى بارد ، أو لأن مائدة الإفطار لا تحوى سوى الفول المدمس ، ويكفى أن أتحسس جبينى حتى يعرف الشارع كله أننى مريض ، وسرعان ما يدسّون بى فى الفراش ويرغموننى على احتساء عصير الليمون الساخن ، مع دهن جبينى بمرهم (النمر) إياه ذى الرائحة القوية ، الذى صنعه رهبان (التبتّ) شخصيًا !

بعض التدليل والاهتمام.. هذا ما أتوق إليه الآن ..

* * *

وفى طريقى إلى المعمل ـ حيث عملى اليوم ـ قابلت ممرضًا أسود يدفع مقعدًا متحركًا فى رهق كثير ، وعلى المقعد عملاق أبيض البشرة ، له عين عوراء يغطيها بعصابةٍ سوداء على طريقة الجنرال (دايان) أو قراصنة (الكاريبى) ..

غريب هذا !

الحق أن الأمر صار غريبًا حقًا ..

هل انتقلت (سافارى) إلى (أوروبا) فجأة دون أن يخبرونى ؟ لقد كدت أنسى شكل المرضى الأفارقة ..

هل صارت (الكاميرون) فجأة هى أهم مراكز السياحة فى العالم ؟ ولو كان هذا صحيحًا فلماذا يمرض السائحون جميعًا ؟

بلغ السيل (الزُبى) كما يقول أجدادنا ـ والزُبى هى الحفرة العميقة التى يحفرونها لتسقط فيها الأسود ـ وتزاحمت علامات الاستفهام ..

ودون تفكير قصدت قسم الحاسب الآلى فى (سافارى) ..

* * *

١٩ أكتوبر عام ١٩٩٧
الساعة ٧,٣٠ صباحًا

كانت (جرترود) الزنجية الأمريكية المسئولة عن الحاسب الآلى ؛ قد شرعت فى الجلوس على مقعدها لتبدأ اليوم .. أعدت كوبًا من القهوة ، وفتحت ورقة تحوى بعض الشطائر .. لهذا لم تبدُ سعيدة جدًا حين رأتنى ..

ـ « صباح الخير يا (عسل) .. »

قالتها فى لا مبالاة ، وتأملتنى بعينين صفراوتين فضوليتين ..

ـ « صباح الخير يا غالية .. أريد البحث عن معلومة ما .. »

ـ « عظيييم ! أنا أحب المتحمسين إلى هذا الحدّ .. »

قلت محاولاً ألا أبدو مستفزًا وإلا لن تفعل لى شيئًا :

ـ « هـل يمكنـك أن تخبـرينى بعـدد الغـربيين أمريكيين كانوا أو أوروبيين أو أستراليين ـ الذين دخلوا (سافارى) فى الأيام الثلاثة الماضية ؟ »

ـ « هذا سهل .. لكنه يحتمـل الانتظار حتى تلتهم العصافير الديدان .. »

ـ « ثمـة احتمـال لا بأس به أن أكـون أنا دودة أخرى .. »

داعبت المفاتيح بأناملها ببراعة مذهلة ، وعلى الشاشة رأيت ما يشبه جدولاً يحوى بعض الأسماء ..

ـ « العدد .. ثلاثون ! وكلهم جاءوا أمس ! »

تصلبت محاولاً استيعاب المعلومـة .. ثلاثون كلهم جاءوا أمس .. لقـد كنت على حقّ .. هنـاك شىء مريب يحدث ..

ـ « أليس هذا غريبًا ؟ »

مطّت شفتها السفلى الغليظة وقالت :

ـ « نعم .. إن (سـافارى) مركز كبيـر يا بنىّ ، ولن تتصور مدى النتائج الغريبة التى ستحصل عليها لو بحثت عن معلومة ما .. ربما لـو بحثت عن عدد الأشخاص الذين يعرجـون بالساق اليسرى ، أو الذين

لهم شامة تحت العين اليمنى ، لحصلت على أرقام أكبر من هذه .. »

أعدت تأمل الشاشة ، ثم طلبت منها طباعة هذه النتائج ..

ـ « ليكن يا روحى .. كلها لك ! »

وابتلعت طريقتهـا فـى الكلام ، لأن (جرتـرود) تستخدم دائمًا هذه التعبيرات ، التى تحمل نوعًا ما من السخرية ـ كأنها تخاطب طفلاً ـ وليس مقصودًا بها الغزل طبعًا ..

كريبيك كريبيـك ! راحـت الطابعـة النقطيـة تصـرّ بصوتها المولول الذى يحطم الأعصاب ، وأخيرًا مزقت (جرترود) لفافة الورق وناولتها لى ..

هنا خطر لى سؤال آخر :

ـ « ما الأوراق التى يحملها هؤلاء ؟ »

أعادت تأمل الشاشة ، وغمغمتْ :

ـ « لا أوراق .. كلهم لا يحمـلون سـوى كلمـاتهم وأمراضهم .. »

ـ « وهذا ليس غريبًا بدوره ؟ »

ـ « نحن فى (سـافارى) يا حبيب القلب ، أى أننا

فى مستشفى لو كنت تدرك هذا .. ما يعنينا هو آلام الناس وليست أسماؤهم .. وإلا ما الفارق بيننا وبين الجمارك ؟ »

شكرتها فى حرارة ، وغادرت المكان ..

ثلاثون شخصًا غريبًا يظهرون فى (سافارى) فى يوم واحدٍ .. كلهم بلا أوراق .. وكلهم بلا أمراض حقيقية .. صحيح أنهم مُحيَّرون .. صحيح أنهم يضعون الطبيب فى موقف يعجز معه عن تبين القرار الصحيح .. لكننى واثق من أنهم - أو أكثرهم - يدّعون المرض ..

لماذا ؟

أعتقد أن الوقت قد حان لمصارحة البروفسور (بارتلييه) بمخاوفى .

* * *

ثانى الفصول

ويحكى عن الحصار والتوتّر تحت سيطرة الفصيلة

١٩ أكتوبر عام ١٩٩٧
الساعة ٩,٣٠ صباحًا

قال البروفسور (بارتلييه) وهو يقضم قطعة (التوست) :

- « هذا اهتمام مشكور يا (علاء) ، ويدلّ على حماس لا بأس به ، لكنى لا أجد الأمر بهذه الخطورة .. »

وصبّ لنفسه بعض القهوة فى كوب ورقى ، وابتلع نصف دزينة من الأقراص المعالجة لارتفاع الضغط والكولستيرول والسكر ، وأردف :

- « نحن لا نسأل أسئلة كثيرة فى (سافارى) .. الطبيب لا يسأل سوى ثلاثة أسئلة : مِمَّ يشكو المريض ؟ - كيف نعالجه ؟ - تُرى هل شفى ؟ »

كنت جالسًا أمامه فى المكتب حيث يتناول إفطاره - وهذا الرجل لا يتناول طعامه فى بيته أبدًا - أصغى لكلامه الذى بدا لى غير معقول وغير منطقى ..

لم أجد ما يقال ، ولم أر داعيًا لمزيد من الجدل : فهززت رأسى فى أدب قلما شوهدت أمارسه ، وطلبت منه الإذن بالانصراف .

* * *

لكن ما إن خرجت من المكتب حتى وجدت نحو عشرة من هؤلاء القوم يقفون ، وقد بدا عليهم الغضب ..

كان منهم من تعرفته على الفور: (ستيفن جالاجر) الأمريكى و (روجر مورلاند) النيوزيلندى و (تشارلز إيمرى) الأوسترالى و ... لقد نسيت باقى الأسماء لكنى لم أنس الوجوه .. وإلى جانب هؤلاء كان من لم أره البارحة ، لكنه يحمل الملامح ذاتها .. وكان ثلاثة منهم يحملون الحقائب العملاقة الشبيهة بالجربنديات إياها ..

كلهم - ما عدا الغضب - كانوا فى خير حال ممكن، وكلهم كانوا يقفون ويمشون ويصيحون فى حماس ..

وتعرفت رجلى أمن - أحدهما (أونكيزى) - بثيابهما الزرقاء الرسمية يحاولان منع هذا الجمع الغاضب من اقتحام مكتب المدير ..

كانت المشاجرة بالفرنسية ، وإن تناثرت ألفاظ السباب الإنجليزية فى كل صوب ، وقد تزعم الكلام رجل له شارب كث يتحدث الفرنسية بطلاقة لا تصدر إلا من فرنسى أو بلجيكى ..

كان يقول :

ـ « أقول إن هذا الإهمال لا يُطاق .. ولئن مات (جيم) فدورنا قادم لا محالة ! لا بد من أن نقابل المدير لنقول له كلمتين ! »

ثمة شىء غريب فى هؤلاء الرجال .. مظهرهم يذكرنى بشىء لا أذكره بالضبط لكنه موجود .. لقد سمعت هذا اللحن من قبل ولكن أين ؟ »

كان (أونكيزى) مرتبكا ، وسرعان ما لحق به رجل أمن كاميرونى ثالث راح يستفسر عن الموضوع فهمس له (أونكيزى) بشىء ما .. فى الغالب يريده أن يهرع إلى المدير ليستشيره .. لربما كان من الحكمة أن يخرج المدير للتفاهم مع هؤلاء المرضى بدلاً من أن يدخلوا هم إليه ..

غريب هذا المشهد ! يذكرنى بإضرابات العمال فى المصانع ، إذ يحتشدون غاضبين مطالبين بمقابلة

مدير المصنع .. على الأقل يطالبون بذلك لعدد منهم اختارتهم اللجنة النقابية .. لكن (سافارى) ليست مصنعًا ، ومن المؤكد أن خدماتها للمرضى لا تشوبها شائبة .. عجيب هذا حقًا !

وسرعان ما ظهر رجل أمن رابع وخامس ، وراحوا يثرثرون مع هؤلاء القوم ، محاولين إقناعهم بخفض أصواتهم ..

فى هذه اللحظة نظر (مورلاند) إلى الموقف بعينين لا تطرفان ، ثم بصوت بارد ، لكنه مرتفع حازم صاح بالإنجليزية :

ـ « هلموا يا شباب ! »

وقبل أن ينتهى من حرف الباء فى كلمة (شباب) ، كان مسدس قد ظهر فى يد أحد هؤلاء المرضى ، وانطلقت ثلاث رصاصات لتستقر فى جسد (أونكيزى) وأحد رجال الأمن ..

* * *

١٩ أكتوبر عام ١٩٩٧
الساعة ١٠,١٧ صباحًا

كان المشهد الآن كما يلى :

الدخان يفعم الجوّ ، وقد سقط رجلان على الأرض مضرجين فى الدماء ، والذهول الذى يلى إطلاق النيران يعمّ المكان ..

تراجعت للوراء وقد شلّ تفكيرى من المفاجأة ، وخطر لى أنهم ينبطحون أرضًا فى ظروف مماثلة فى السينما وكما علمونى فى الجيش .. لكن جسدى كان منفصلاً تمامًا عن الإشارات الكهربية لجهازى العصبى..

أخرجنى (مورلاند) من ذهولى ، إذ أشار لى فى حزم ثم إلى الرجلين على الأرض :

ـ « تولّ أمر هذين ! »

جثوت على ركبتى ، ومددت أناملى أتحسس عنق الرجل الأول .. لقد مات على الفور واخترقت الرصاصة قلبه بدقة .. أما (أونكيزى) فكان حيًا وإن مزقت الرصاصة كتفه .. كان ينزف ويئن ..



جثوت على ركبتى ، ومددت أناملى أتحسس عنق الرجل الأول .. لقد مات على الفور ، واخترقت الرصاصة قلبه بدقة ..

وسمعت (مورلاند) يقول بصوت مرتفع :

ـ « كان هـذا درسًا قاسيًا أردنا به العبـرة لمن يعتبـر .. لكن دعنـا نؤكد أننـا لم نحبَّ هـذا قـط ، ولا نرغب فى إرغامنا على عمله ثانية .. »

نظرت له وبحثت عن الكلمات بصعوبة :

ـ « هذا ميت .. أما الآخر فجريح .. »

ـ « إذن أطلب له النجدة .. ماذا تنتظر ؟ »

ثم ـ باحترام شديد ـ أشار إلى (إيمرى) ، وأمره :

ـ « جرِّد رجـال الأمـن من مسدساتهم ، ولا تنس الفقيد .. »

صار الأمر واضحًا الآن .. إن (مورلاند) هو قـائد هذه المجموعـة ، وبرغم حالتـه الصحيـة المتدنيـة .. كان هو الوحيد الذى يعتمد على عكـاز ، وساقه التى ضمدتها أنا أمس قد تلوثت أربطتها .. لكنه كان يـأمر ويقود بالنظرات والنبرة الهادئة الحازمة ..

سألته وأنا راكع جوار (أونكيزى) :

ـ « ماذا تريدون بالضبط ؟ مستحيل أن يكون هذا بسبب نقص العناية الطبية هنا ! »

ضحك ضحكة مقتضبة ، واعتدل على عكازه :

ـ « بالطبع لا يا دكتور.. هى مجرَّد حيلة لحشد رجال

الأمن كلهم فى مكان واحد .. أما عن غرضنا فهذا ليس من شأنك .. سيكون كلامى مع المدير شـخصيًا ، والذى بدأت أرتاب فى حالة أذنيه بعد هذا الضجيج .. »

وهنا عرفت ما تحويـه كل هـذه الحقـائب .. إنهم يتقدمون واحدًا بعد الآخر ليأخذ كل منهم من حقيبته بندقية آلية أو مدفع (عوزى) ، ومسدسًا يدسه فى خصره .. ثم بدءوا يتزودون بحاجاتهم من القنابل اليدوية ..

ترسانة كاملة فى هذه الحقـائب ، ومـن الغريـب أن أحدًا لم يفكِّر فى تفتيشها ، ولهـذا كانوا يصرُّون على الاحتفاظ بها ..

* * *

لقد تعلمنا ـ نحن الغربيين ـ ألا نثق فى الأفارقـة كثيرًا ..

* * *

لا أمانـات يا رجل .. هـؤلاء الأفارقـة يسرقـون السياح طيلة الوقت .. هذا عملهم !

* * *

هو ذا البروفسور (بارتلييه) قادم من بعيد يجرَّ ساقًا خلف ساق .. إن أسوأ مفاجآت عمره تنتظره بالتأكيد .. وخلفـه يجـرى مسـتر (براكلى) نائب المدير الثانى ،

ثم السكرتيرة الحسناء ، ثم ـ من الجهة الأخرى ـ حشد من طاقم (سافارى) وقد سمعوا صوت الطلقات ..

الآن يتخذ المسلحون أوضاعًا مدروسة يصوّبون بها أسلحتهم على القادمين ، وقد أدركت من طريقتهم فى إمساك المسدس باليدين ، أو رفع فوهة البندقية الآلية لأعلى ، أنهم محترفون حقًا .. قوم يعيشون ويأكلون وينامون جوار تلكم الأسلحة الخطرة ..

فى جزع صاح (بارتلييه) :

ـ « مـ .. ماذا يحدث ؟ من أنتم ؟ »

للمرة الأولى يكشف (مورلاند) عن إجادته للفرنسية ، فيقول للمدير وهو ينحنى فى احترام مفتعل :

ـ « الميجور (آرثر بلاكلى) قائد هذه المجموعة يا سيدى .. ودعنى أقل لك : إن هناك ثلاثين جنديًا من رجالى فى وحدتك هذه يا سيدى ، يسيطرون على كل المواقع الحيوية فى اللحظة التى سمعوا فيها طلقات الرصاص ..»

ابتلع (بارتلييه) ريقه ، وأدركت أنه لا يحبّ كثيرًا أن يحتل الإرهابيون مستشفاه ويقتلوا رجاله .. إن لكل شخص ذوقًا خاصًا كما تعلم ..

قال (بارتلييه) بعد ما وجد الكلمات :

ـ « مـ .. ماذا تريدون ؟ هـ هذه الو .. الوحدة منظمة د .. دولية .. »

ـ « وهذا هو المطلوب .. »

ومن جيبه أخرج مسدسًا شرس المظهر ، وتقدّم خطوتين على عكازه :

ـ « مُر رجالك أن يتفرّقوا ويمارسوا عملهم ، فلن يصيبهم ضرر ما .. إن تذكروا أيام المدرسة وأطاعوا كلمات المعلمة .. »

نظر (بارتلييه) لنا وقرّر أن يمارس دور الأب المضحّى:

ـ «عودوا لأعمالكم يا أبنائى، ولاتستفزوا هؤلاء ..»

ثم أشار باتجاه مكتبه ، وقال للميجور :

ـ « هلا تكلمنا فى مكتبى ؟ »

ـ « كنت سأقترح الشىء ذاته .. »

وفى صمت انسحب الرجلان نحو مكتب المدير ..

كان (بسام) واقفًا وقد بدا عليه الارتباك وعدم الفهم .. كان يعمل فى قسم الأشعة حين سمع هذا الضجيج .. ونظر لى نظرة حائرة معناها (هل الأمر بهذا السوء ؟) فبادلته بنظرة معناها (بل هو أسوأ !) ..

ومترنحًا فاقد الاتزان ابتعدت عن المكان ..

★ ★ ★

١٩ أكتوبر ١٩٩٧ عام
الساعة ١٠,١١ صباحًا

دخلت المعمل حيث كان عملى ، وهذه المرّة لم توجّه لى د. (هيلجا) عبارات اللوم على تأخرى ، حيث تتدخل تعبيرات وجهها الشرسة فى تحويل لومها إلى نوع مهين جدًا من السبّ العلنى ..

لم توجه لى كلمة ؛ لأن الظروف لم تكن ملائمة ، والظروف التى أتحدّث عنها هى (جيمس) الزنجى الإنجليزى.. كان جالسًا ـ كجبل (التوباد) ـ فى مدخل المعمل ، وقد أمسك بيده اليمنى مدفعًا (عوزى) لا يتناسب مع حجم ذراعه .. وكان قد ارتدى سروالا من سراويل القوات الخاصة ، مبرقشًا ببقع خضراء ..

صامتًا كان ، لكنه صمت بليغ جدًّا يقول الكثير ..

بدأت العمل مع د. (هيلجا) فى شىء من عصبية .. من العسير أن تؤدى عملك مهما كان ، بينما سلاح نارى فى المكان .. سلاح يمكن أن ينفجر فى وجهك فى أية لحظة ..

لكننى لم أستطع كبح جماح لسانى ـ وهو فى مكان زلق ـ فقلتُ له إذ مررت بجواره ، وبلهجة فيها بعض التهكم :

ـ « أعتقد ـ والحمد للّه ـ أنك شفيت تمامًا من الصداع .. »

قال فى برود بشفتيه الغليظتين :

ـ « الحرب هى الحرب يا رجل .. لا بد من الخداع .. »

ودسّ المدفع تحت إبطه ليشعل سيجارًا غليظ المظهر ، فراحت (هيلجا) التى لا تطيق الدخان تلوّح فى عصبية لتبعد الرائحة عنها ..

قال فى شىء من الاستمتاع :

ـ « معذرة يا أختاه .. فلسنا دمثى الأخلاق إلى هذا الحدّ .. »

وواصل نفث الدخان .. وواصلنا عملنا فى توتر ..

يبدو أن عشر دقائق قد مرّت علينا ، حين سمعنا الصوت الرخيم المصطنع يقول فى مكبر الصوت : إننا مطلوبون فى قاعة الـ (تيوتور) ، فى الطابق الثانى ..

نظرت له ، وقلت :

ـ « المدير يريدنا .. لا بد أن هذا بشأنكم .. »

نفث الدخان الكثيف ، وأشار إلى الباب بمعنى أنه بوسعنا الذهاب .. ولم تكن (هيلجا) تفهم حرفًا بالطبع لأنها ألمانية تجيد الفرنسية ، لكن لغة الإشارات عالمية على كل حال ..

سألتنى وهى تغادر المكان معى :

ـ « ماذا يعنيه هذا الحيوان بكلمة Sis (أختاه) ؟ هل يشتمنى ؟ »

ـ « كلاً .. إنه يبجلك .. من الواضح أنك جديرة بهذا .. »

فلو جرؤ هذا الحيوان ـ كما تصفه ـ على إهانتها ، لكان آخر يوم فى حياته ، حتى لو كان يملك مدافع الأرض .. حتى الإرهابيين يرتجفون هلعًا من (هيلجا) الشمطاء شديدة الشراسة ..

★ ★ ★

وندخل الـ (تيوتور) حيث احتشد كل طاقم (سافارى) تقريبًا .. لكنه لم يكن كأى اجتماع آخر عرفته (سافارى) ..

الوجوم على الوجوه ، وبعض الهستيريات يبكين..

وفى الجو ذلك الاكفهرار الذى يصيب بالعدوى السماء ذاتها فتحتشد بالغيوم ..

الجديد فى هذا الاجتماع أيضًا هو ذلك العدد من الرجال الأشداء المسلحين ، الذين وقفوا ـ فى توتر الحارس الخاص وتوفزه ـ يحيطون بالجالسين ، وكثير منهم يدخن فى استهتار غير مبال بتعليمات منع التدخين ..

ورحت أرمق وجوههم خلسة ..

أعوذ بالله !

هذه أشرس وجوه رأيتها فى حياتى .. وجوه لا تنتظر منها رحمة أو تفاهمًا أو تعقلاً .. وجوه رعاع منبوذين لفظهم المجتمع ، ويمكن أن تظهر صورهم فى أى مرجع للطب النفسى تحت عنوان (الشخصية السايكوباتية) .. وبالطبع كانوا سعداء فخورين منتشين بكل هؤلاء العلماء الذين تعجز سيقانهم عن حملهم ..

إن قوانين القوة الغاشمة غريبة حقًا .. لقد أمسك الرعاع ـ أيام الثورة الفرنسية ـ بالعلامة (بريستلى) ، سيد كيميائى عصره ، وقطعوا رقبته بالمقصلة فى ثانية واحدة ..

بالمثل يستطيع أى وغد من هؤلاء أن يقتل

(شلبى) أو عالمًا من وزن (هانز شيفرن) ، فى ثانية واحدة ، وبرصاصة ببضعة قروش ..

وعلى المنصة تدحرج الجسد المكتنز لـ (بارتلييه) ، ووقف أمام الميكروفون وهو يجفف قطرات العرق على جبينه ، وبالطبع لم يقل مزحته السخيفة (كيف حالكم هناك) التى لا يفهم أحد لماذا يضحك بعدها ..

بصوت مبحوح قليلاً قال :

ـ « نحن فى ظروف عسيرة ، وأعتقد أن جميعكم يفهم ما يحدث الآن .. »

ومن ورائه ـ على عكازه ـ دنا الميجور النوزيلندى (مورلاند) ـ أو (آرثر بلاكلى) الآن ـ ووقف يصغى للكلام فى اهتمام ..

حقًا كان (بلاكلى) هو أكثر المعتدين قابلية للتفاهم .. يبدو رزينًا متعقلاً قد علمته السنون كيف يكون حكيمًا .. صحيح أنه قرصان ، لكن شتان ما بين قرصان وقرصان .. هذا رجل عاقل قوى الشخصية يعرف كيف يسيطر على مجموعة الذئاب المسعورة هذه ..

قال المدير وبعد ما سعل مرتين :

ـ « إن السادة الذين شرفونا هنا ـ غير مدعوين ـ قد احتلوا الوحدة تمامًا ، ومن نافلة القول أن أؤكد أن

الوحدة مغلقة ولا تتعامل مع الوطنيين .. خطوط الهاتف واللاسلكى كلها تحت سيطرتهم .. ستمارسون أعمالكم المعتادة وتتحاشون الاحتكاك ، ويعدكم الميجور (بلاكلى) بالأمان والسلامة ما لم تثيروا حفيظته .. »

هنا نهض (آرثر شلبى) ـ ما كان ليظل صامتًا مع ولعه الدائم بالظهور ـ وحكّ شعره الأشيب ، ثم تساءل :

ـ « هل يُعدّ من الفضول الزائد يا (موريس) أن نعرف سرّ هذا كله ؟ »

نظر المدير متسائلاً إلى (بلاكلى) .. فتقدم (بلاكلى) إلى مكبر الصوت فى كياسة ، وبصوت هادئ قال :

ـ « كلا .. لا يُعدّ فضولاً زائدًا يا مستر ؟ »

ـ (شِلبى) .. (آرثر شلبى) .. »

ـ « فيما أظن أنت أمريكى ؟ »

ـ « نعم .. ومعى عشرون ونيف من الأمريكيين هنا .. ودعنى أؤكد لك أن حكومتى لن تكتفى بشدّ آذانكم .. »

شعرت بغيظ لهذه العبارة ، التى ظاهرها الشجاعة وباطنها الغرور والأنانية .. يوجد هنا أكثر من مائتى طبيب وموظف من كل جنسيات الأرض ، لكن الأخ (شلبى) يرى أن الأمريكيين هم وسيلة الضغط

الوحيدة على هؤلاء الإرهابيين .. ولحدّ ما فإن كلامه صحيح ..

وشعرت بغصة فى حلقى إذ تذكَّرت يومًا كنا مثله .. وكانت المرأة العربية التى كسر الروم أسنانها فى (عمورية) تقول ذات الكلام .. فقط صاحت (وامعتصماه) فإذا بجيش جرَّار يزحف ليثأر لها !

لم تثر كلمات (شلبى) غضب الميجور ، بل قال باسمًا :

- « ثق يا سيِّدى أننا نعرف جيدًا خطورة الموقف .. نحن لا نمزح ولا نتوقع أن يشدّ أحد آذاننا .. وقد جئنا هنا وكل منا يشعر بطلقات رجال (الكوماندوز) تمزق صدره .. والآن هلا جلست من فضلك ؟ »

ساد صمت رهيب ، ورحنا نصغى فى اهتمام لكلماته التالية ..

* * *

١٩ أكتوبر عام ١٩٩٧
الساعة ١٢,٤٥

قال الميجور (بلاكلى) فى تؤدة :

- « كنت فى (إفريقيا) منذ أعوام طويلة .. كنت من رجال الكولونيل (سترلنج) الذين يتم استئجار جهودهم من شارع (سلون) فى (لندن) .. وكان ثمنى وقتها خمسة آلاف جنيه استرلينى .. إننى أعتبر نفسى عاملاً باليومية .. لكن أكثركم يستعمل تعبيرًا أكثر حدّة : مرتزق .. »

« نعم .. أنا مرتزق أبيع خبراتى القتالية لمن يدفع أكثر .. ولقد حاربت (لومومبا) فى (الكنغو) مع (تشومبى) .. كان (لومومبا) شابًا ثوريًا مثقفًا لا يملك سوى إيمانه بوطنه ، بينما كان (تشومبى) يملك المال ويملك القدرة على استغلال أمثالى .. وكانت النتيجة محتومة : اعتقال (لومومبا) وجرّه بحبل فى عنقه فى شوارع (ليوبولدفيل) ، ثم إطلاق الرصاص عليه .. »

« بعد هذا عملت فى (ليبيريا) و (زائير) .. وتدريجيًا صار عندى مجموعة من الخبراء فى الحرب ، وحرب العصابات بالذات .. »

« لقد اصطلحوا على تسميتى (الميجور) ، وتسمية رجالى (الفصيلة) ، وعشنا نتنقل من بلد لآخر .. »

« فى عام ١٩٩٤ نشبت خلافات على الحدود بين (نيجيريا) و (الكاميرون) ، وسبب الخلاف هو شبه جزيرة (باكاسى) الغنية بالبترول ، وهى مصدر قلاقل دائم بين البلدين(*) .. »

« ولم يكن ممكنًا أن نغيب عن الصورة .. لقد وصلنا إلى (نيجيريا) أنا ورجالى ـ وكان عددهم آنئذ أربعين ـ وعرضنا خدماتنا على الحكومة هناك .. »

« إن من يتابعون السياسة منكم يذكرون أن محكمة العدل الدولية أصدرت حكمها بحق (الكاميرون) فى (باكاسى) .. »

« إلا أن هجومًا نيجيريًا مباغتًا عبر الحدود فى

(*) كل ما يقال فى (سافارى) حقيقى ، ما لم نقل غير هذا .

العاشر من سبتمبر من العام ذاته ، واحتل شبه الجزيرة ، وقتل عشرة جنود من الكاميرونيين .. »

« حسن .. كان هذا الهجوم من تخطيط وإدارة خادمكم المطيع (بلاكلى) .. »

« وفى العامين التاليين بدا أن حكومة (نيجيريا) قد ضاقت بنا .. إن المرتزقة عبء على أية حكومة ، وخطر داهم دائم .. »

« لهذا قرروا طردنا .. والمشكلة هى أن (إفريقيا) قد صارت أضيق من اللازم بالنسبة لنا ، ولم يعد وجودنا مرغوبًا فيه فى أكثر بلدان القارة ، ودعونى أصارحكم بأننا لم نعد نعرف وجهة نقصدها .. »

« هنا قررنا أن ندخل (الكاميرون) وأن نمارس لعبة القرصنة الدولية الشهيرة .. ادفعوا حتى لا يموت رعاياكم .. »

« إن وحدة (سافارى) تتمتع بمزايا عديدة ، فهى قريبة نوعًا من الحدود النيجيرية ، ومسالمة لا تملك وسائل دفاع ، وبها من الجنسيات ما يزرى ببرج (بابل) ذاته .. أى أن أمر طاقمها يهمّ العالم كله .. »

« لقد احتللنا الوحدة كما ترون ، ورسالتنا للحكومة الكاميرونية واضحة محددة ، ولسوف تصل للعالم كله خلال ساعات : نريد طائرة تنقلنا إلى (أمريكا الجنوبية) وعشرة ملايين جنيه إسترلينى ، ولسوف تعمَّ السعادة الجميع ونقتصد فى ذخائرنا .. »

صاح (شلبى) من جديد :

ـ « لا أحد يقبل الخضوع للقرصنة ! »

ابتسم الميجور وقال دون أن ينظر لـ (شلبى) :

ـ « سيكون هذا من سوء حظكم حقًا ! إننى أسألكم أن تتأملوا رجالى .. هل ترون ؟ هم مجموعة من الذئاب الشرسة أسيطر أنا نفسى عليها بصعوبة بالغة .. فكيف يكون حالكم لو غضبت هذه الذئاب ؟ كيف يكون لو أننى تركت لها العنان ؟! »

ـ « هل تهددنا ؟ »

ـ « بالطبع يا سيدى أهددكم .. لا يوجد وصف آخر لما أقوله .. »

ثم اعتدل فى وقفته بصعوبة ، وقال :

ـ « هل لديكم أسئلة ؟ »

* * *

١٩ أكتوبر عام ١٩٩٧
الساعة ٢,١٥ بعد الظهر

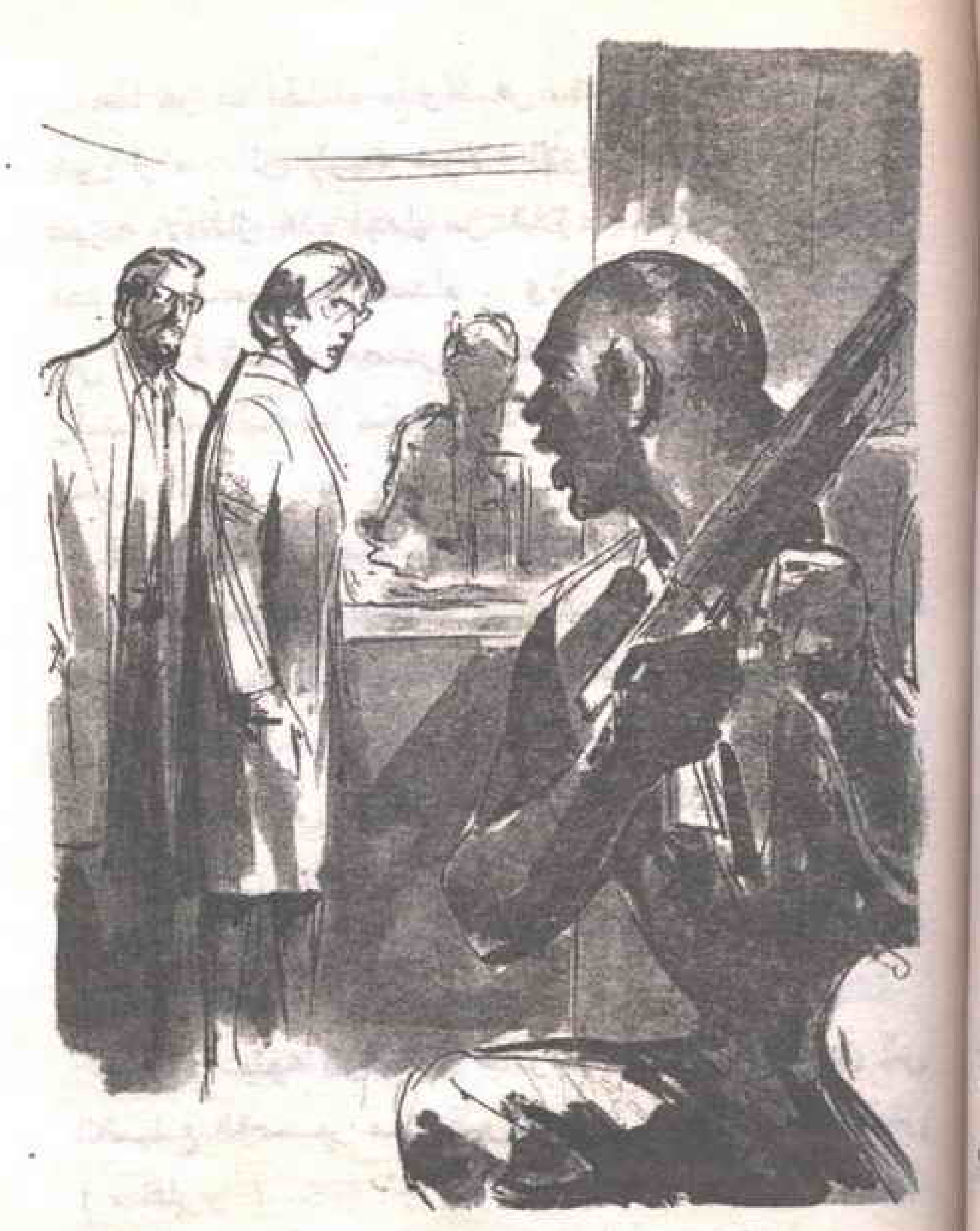
كنت فى المعمل مع (هيلجا) مستمرين فى العمل ، بينما الأخ (جيمس ماكجراث) الزنجى يجلس كعادته جوار الباب بمدفعه .

سمعت صوت خطوات أنثوية ، ثم دخلت (برنادت) حاملة ـ كعادتها ـ بعض الشرائح التى تريد رأى (هيلجا) فيها ..

فما إن رأيتها حتى سقط قلبى فى قدمى .. إذن الحمقاء لم ترحل إلى (ياوندى) بعد .. ويا له من تأخير غير مناسب فى وقت غير مناسب ..

كنت ـ وسط هذا الحصار ـ راضيًا مسرورًا ؛ لأنها بعيدة فى الغالب عن كل هذا ، وبمنطق (بوذا) الذى ليس لديه أغنام ولا مال .. فلتزأر العاصفة إذن ..

أما الآن فقد أضافت همًّا حقيقيًّا ملموسًا إلى همومى .. لقد صار لدىَّ هنا ما أخاف عليه حقًّا ..



فى هذه اللحظة اختلست نظرة إلى (ماكجراث) ، فوجدت ما أخشاه .. كان يرمق (برنادت) بنظرة طويلة لزجة وقحة ..

ـ « ألم تسافرى بعد ؟ »

ـ « نعم .. وكيف أفعل دون أن أودعك ؟ »

كانت شاحبة قليلاً مرهقة الأعصاب بفعل الجوّ المتوتر حولنا ، لكنها تحاول التظاهر بالمرح .. قالت لى :

ـ « تبدو غير سعيد جدًا برؤيتى .. »

ـ « لو أردت الدقة .. أنا تعس لرؤيتك .. »

هزّت رأسها ، فهى أنثى ذكية تفهم على الفور ما تريد قوله ، ولا تسأل أسئلة نمطية على غرار (لماذا تشعر بتعاسة لرؤيتى ؟) أو (آسفة .. سأحاول أن أغيب عنك حالاً) .. إلى آخر هذا الهراء ..

ناولتُ الأنابيب والشرائح للدكتورة (هيلجا) ، وراحت تشرح لها فى عبارات سريعة ملخصًا لكل حالة ..

فى هذه اللحظة اختلست نظرة إلى (ماكجراث) ، فوجدت ما أخشاه .. كان يرمق (برنادت) بنظرة طويلة لزجة وقحة ، وقد تدلت شفته السفلى الغليظة ..

هذا هو ما أخشاه ، وأشعر بخنجر يمزق صدرى حين أراه .. لن يلبث هؤلاء الأوغاد أن يلاحظوا أن طبيبة الأطفال هذه أجمل من اللازم .. لكن لو ضايقها أحد فلا مناص من الصدام .. والصدام نتيجته الوحيدة هى جثة شاب مصرى ملتح اخترقت رصاصة رأسه .. لكنه ما باليد حيلة .. لا أرى الأمر على ضوء آخر ..

قلت لها وأنا أمسك بساعدها :

ـ « هل لى أن أوصلك إلى ..... ؟

ـ « إلى غرفتى .. فقد انتهت فترة عملى .. »

ـ « ليكن .... »

واستدرت إلى الزنجى العملاق ، وطلبت منه الإذن لبضع دقائق ، فهزّ رأسه أن اذهب .. هذه المرة لم أطلب إذن (هيلجا) لأنها لم تعد الجالسة وراء عجلة القيادة ..

وأمام عينيه الوقحتين غادرنا المعمل ، متجهين إلى الضلع القصير من حرف (L) الذى هو مبنى (سافارى) ..

ربّاه ! لم أحسب الأمور بهذا السوء قط ..

كانت أبواب (سافارى) الرئيسية المفتوحة على الدوام مغلقة كلها بإحكام ، ووراء كل باب كان (مترليوز) تم نصبه لتواجه فوهته الفتحة ، ويبدو أن الباب ذاته مُلغَم ..

وفى كل مكان كان هؤلاء القوم يجوّلون ، وقد ارتدوا ثياب حرب شبه كاملة ، وتدججوا بالسلاح ليظهروا على حقيقتهم : قراصنةً لا أكثر ..

كان أكثرهم يحمل أجهزة (ووكى ـ توكى) صغيرة للاتصال والتنسيق فيما بينهم ، لكنى لم أستطع فهم خطتهم بعد .. المفترض أن يجمعونا فى مكان واحد ليضمنوا السيطرة علينا لو حدث هجوم من الخارج .. إنهم يتصرفون بثقة واطمئنان أكثر من اللازم ..

سألتُ (برنادت) :

ـ « هل من أخبار جديدة ؟ »

قالت وهى مستمرة فى السير :

ـ « لقد أرسل المدير إلى (ياوندى) ، وإلى (أنجاوانديرى) يخبرهم بالهجوم .. ويبدو أن القوات فى طريقها للوصول إلى هنا الآن .. »

ـ « وأين زعيم هؤلاء ؟ »

ـ « لقد اتخذ لنفسه مركزًا للقيادة .. هو مكتب المدير ، والبروفسور معه هناك لتذليل العقبات الفنية .. »

ـ « أى أن (سافارى) تحت سيطرة عسكرى شرير وطبيب معدوم الحيلة .. »

ـ « بالضبط .. »

ـ « كنا نمر الآن أمام عيادة أمراض النساء والتوليد ، حين سمعنا صياحًا غاضبًا ، ورأينا ذلك الأمريكى ذا الشعر المعقوص والوشم ـ يبدو أن اسمه كان (جالاجر) ـ يخرج ، وعلى وجهه ضحكة صفراء ، ومن خلفه برزت الصينية د. (ماى فاى لين) وهى لا تكف عن إطلاق الشتائم الصينية التى لا يفهمها أحد ، وفى النهاية صاحت بفرنسيتها الرديئة :

ـ «أنت لن تدخل عيادتى هذه .. لا .. لا .. رصاص نعم .. عيادة لا ! »

ابتسم الرجل الذى يحمل علامة (سان فرانسسكو) ، وتحسس المسدس فى خصره ، وغمغم :

ـ « الأوامر هى الأوامر يا دكتورة .. ولا دخل للحياء هنا .. »

ـ « هنا أدركت أننى كنت مصيبًا حين حدَست أنه يفهم الفرنسية .. لقد قال عبارته الأخيرة بها .. »

لكن (ماى ـ فاى ـ لين) كانت على استعداد للموت فى مكانها على أن تسمح لهذا الإرهابى بالبقاء فى عيادتها ، وكان صياحها الغاضب يدوى بلغتها التى لها رنين الأجراس ، ورأيت الفتى عاجزًا عن اتخاذ قرار صائب .. هل يقتلها الآن .. أم يقنعها تدريجيًا ؟

ـ « ماذا عندك يا (جالاجر) ؟ »

كان هذا الصوت الهادئ المهيب هو صوت (بلاكلى) ، الذى جاء لا أدرى من أين ، وهو يستند على عكازه ، ومسدسه فى يده الحرّة ..

قال (جالاجر) وهو يبصق على الأرض :

ـ « الصينية الحمقاء يا ريس .. لا تريد أن أرابط فى عيادة النساء والولادة كما أمرتنى .. »

ـ « لقد سألتك أن ترابط على الباب لا بالداخل ، ومن الطبيعى أن تثور الطبيبة لهذا .. »

ثم مدّ يده الممسكة بالمسدس فوضع راحته على قذال الرجل ، كأنما ينصح طفلاً شقيًا ، وضاغطًا على كلماته قال :

ـ « تذكَر يا (جالاجر) .. لقد رأيت الكثير .. لكن دعنى أقل لك نصيحة مهمة .. قد يخشاك الناس وقد يهابونك .. لكن هناك شيئين يجعلان الناس يثورون ضدك ، ولا يبالون بالموت .. هذان الشيئان هما الدين وحُرمة النساء .. إياك أن تدنو منهما إذا أردت أن تظل مهابًا مطاعًا ، فلا يحاول أحد التمرّد على سلطتك .. الدين وماذا ؟ »

وبفوهة المسدس صفعه على مؤخر رأسه صفعة خفيفة ، ليلقنه الدرس .. :

ـ « الدين وماذا ؟ »

دون أن يبعد عنه (جالاجر) عينيه الوقحتين ، قال :

ـ « وحُرمة النساء .. »

ـ « استدار (بلاكلى) إلى الدكتورة الصينية التى لم تفهم حرفًا مما يقال ، وبالفرنسية قال لها وهو يحنى رأسه فى أدب :

ـ « نعتذر يا سيدتى عن هذا الخطأ ، ونعد ألا يتكرَر .. »

ومن جديد راح عكازه يضرب الأرض مبتعدًا ..

★ ★ ★

١٩ أكتوبر عام ١٩٩٧
الساعة ٣,٠٠ بعد الظهر

أوصلت (برنادت) إلى حجرتها ، وأوصيتها مرارًا بألا تغادرها تحت أية ظروف .. أنا أعرف كل شىء عن فضولهن الأحمق .. ولسبب لا تدريه هى نفسها سوف تغادر حجرتها لعمل شىء لا يحتاج أحد إليه ، وهكذا تلقى حتفها .. هكذا يتصرفن جميعهن.. تصاعد الدم إلى رأسى حنقًا عليها لهذا التصرف الذى لم تفعله بعد ، لكنها ستفعله حتمًا ، وقلت لها فى غلّ :

ـ « لو خرجت من هذه الغرفة سأهشم عنقك على ركبتى ! »

وتركتها قبل أن تردّ أو تقول شيئًا على غرار (وما شأنك بى ؟) أو (مالكش حكم علىّ) لو كانت تعرف العامية المصرية .

وحتى فى هذا المكان كان هناك مسلح يحمل بندقية آلية .. إنه (إيمرى) الملتحى الأسترالى أول من عرفت من هؤلاء القوم ..

كان يجوب الردهة ، ويرمق كل شىء دون كلام ..
وخطر لى أنه من الممكن أن أنقضّ عليه و (بسام) لنجرده من سلاحه .. لكن ماذا بعد ذلك ؟ وماذا عن تسعة وعشرين جنديًا محترفًا يملأون وحدة (سافارى) ؟

لا حل سوى انتظار النجدة من الخارج ..

* * *

وعند مكاتب الإدارة لمحت صخبًا ، وحشدًا من الأطباء اختلطوا بالجنود وكلهم ينظر خارج النوافذ الزجاجية التى تحتل الجدار الشرقى بأكمله ، ويلوّح كما لو كان هناك سيرك بالخارج ..

الحق أنه كان سيركًا من نوع خاص ..

دنوت من الزجاج فلمحت طائرة هليوكوبتر دانية جدًا ، حتى كان بوسعى أن أرى راكبيها ، وكان أحدهم يرمقنا من عدسات منظار ميدان ، وعلى الطائرة الحروف الأولى من (السلاح الجوى الكاميرونى) ..

دارت حول المبنى ثم ابتعدت ، واستطعت أن أرى فى الساحة المحيطة بـ (سافارى) جيشًا كاملاً من

العربات نصف المجنزرة ، وسيارات (الجيب) ، والجنود الذين انتشروا بشكل عالى الاحترافية فى المنطقة كلها ..

لقد جاءت القوات المسلحة الكاميرونية كلها إلى هذا المكان ..

كان المشهد رهيبًا ، ولهذا فهمت سرّ العصبية الزائدة التى تحركت بها تفاحة (آدم) فى عنق ذلك الفرنسى ذى الشارب ، الذى كان يتولى مهمة الترجمة ، عندما قتل رجل الأمن .

فهمت كذلك لماذا أصدر (جاك) الأسترالى أمره للأطباء بالابتعاد عن النوافذ .. ولماذا أصدره بتلك العصبية الوحشية وهو يصوّب مدفعه إليهم .. إنها لحظة متوقعة .. لكنها هزّت أعصابهم إلى حدّ ما ..

رأيت د. (بارتلييه) قادمًا يتدحرج من مكتبه ، وجواره (آرثر بلاكلى) يتواثب على عكازه ، وكان الأول ممتقع الوجه كعادته وإن حاول التظاهر بالوقار .. وهى من اللحظات القليلة التى سررت فيها لأننى لا أحمل مسئولية أحد سواى .. إن المدير شجرة بينما نحن حشائش تحيط بها .. وحين تجىء

العواصف والأعاصير تقتلع الأشجار بسهولة تامة بينما تظل الحشائش فى خير حال ..

- « ابتعدوا عن النوافذ يا أولاد ، وليعد كل إلى عمله .. »

قالها لنا المدير بلهجة الأب الذى يعرف أكثر .. ثم التقت عيناه بعينى فمدَّ يده لى :

- « تعال يا (علاء) معى ! »

لحقت به مترددًا .. ماذا يريد منى بالضبط ؟

- « سنقابل هؤلاء القوم ونخبرهم بشروط مختطفينا ! »

* * *

١٩ أكتوبر عام ١٩٩٧
الساعة ٣,٢٠ مساءً

فى الغالب ألف القارئ هذا المشهد المكرَّر ، لهذا لن أصفه بدقة مكتفيًا بالنقاط الأساسية ..

لقد فتح لنا المرتزقة البوابة ، وخرجنا - أنا و (بارتلييه) - بينما وقف (بلاكلى) وراء الباب متحفزًا مع اثنين من رجاله ، وكانت هناك مائتا بندقية تقريبًا مصوبة لنا بانتظار ردّ فعلنا .. أى أن الجيش الكاميرونى كله كان يهدِّد وجوهنا بينما المرتزقة يهددون ظهورنا ..

شرح (بارتلييه) لضابط أسود صارم الوجه الموقف بالداخل ، وقال : إنه لا يضمن سلامة الطاقم ، وإنه راغب فى الاستجابة لمطالب القراصنة ..

وفهمت من الحديث أن المفاوضات كانت جارية طيلة الوقت بالهاتف فى مكتب المدير ، وأن وزير الداخلية ووزير الحربية ووزير الصحة الكاميرونيين

كلهم مقحمون فى الموضوع ، كما أن هناك محاولات عدة من السفير الأمريكى والسفير البريطانى .. لكن هذا لم يزد الخاطفين إلا عنادًا ..

هذا الشىء لن يدهشنى .. لقد أحرق هؤلاء القوم سفنهم خلفهم ، ولم يعد أمامهم مجال للتراجع ، ولو كنت مكانهم لما تراجعت قط ..

تساءل الضابط الكاميرونى :

- « هل هناك فترة معينة لتنفيذ مطالبهم ؟ »

- « التاسعة مساءً .. وبعدها يشرعون فى قتل الرهائن .. هذه هى تقاليد الإرهاب الدولى ، وهم ملتزمون بها .. »

فكّر الضابط قليلاً ، ثم صافح البروفسور فى حرارة :

- « يمكنكم العودة الآن ، ولا تقلقوا ستكونون بخير .. »

مهمومًا دسّ البروفسور (بارتلييه) يديه فى جيب معطفه الأبيض ، واستدار عائدًا بعد ما أشار لى كى ألحق به ..

واجتزنا البوابة من جديد ، فسرعان ما انغلقت خلفنا ..

* * *

قال الميجور (بلاكلى) وهو يثب بعكازه :

- « أحسنت يا بروفسور .. ولا كلمة زائدة على ما اتفقنا عليه .. والآن مُرهم أن يحضروا بعض الطعام لرجالى .. فهم لم يذوقوا طعمه منذ وقت طويل .. »

- « ليكن .. لكنى أرجو لو سمحت لى بدخول الحمّام .. »

- « هذا حقك البشرى .. »

ودهشت لأن (بارتلييه) ظلّ متأبطًا ذراعى ، حتى وهو يتجه إلى مكتبه .. كان (تشارلز إيمرى) الأسترالى جالسًا هناك جوار جهاز الهاتف والفاكس بانتظار أخبار جديدة إلى أن يعود قائده .. ولم يقل شيئًا عندما فتح المدير باب الحمام الملحق بحجرته ، وجذبنى من ذراعى ..

« هلم يا (علاء) .. يمكنك أن تغسل وجهك ، ثم تتكلم بعدها .. »

أنا أدرك أنه فى حالة توتر نفسى وعاطفى ، يحتاج معه إلى من يبقى دانيًا منه طيلة الوقت .. لكن حماسى للمشاركة الإنسانية لن يصل لدخول الحمام معه طبعًا ..

إلا أن نظرة عينيه جعلتنى أخرس .. يريد أن يخبرنى بشىء على انفراد ..

ودخلنا الحمام معًا .. فاتجهت أنا إلى حوض الغسيل لأغسل وجهى من كل العرق والتوتر ، بينما أدار هو ظهره ، وشعرت بشىء يوضع فى جيب معطفى ، ثم اختفى داخل دورة المياه ..

بعد دقائق سمعت صوت المياه فى صندوق الطرد ، وخرج .. وهمس وهو يمرّ بجوارى ..

- « اقرأ ما فى الورقة ، وحاول تمرير ما بها سرًا على زملائك .. »

إذن ما دسه فى جيبى هو ورقة .. وفى الغالب أعطاه إياها ذلك الضابط الكاميرونى عندما صافحه بحرارة لا داعى لها ..

« وهكذا غادرت مكتب المدير بعد ما شكرته على المتعة التى شعرت بها فى دورة المياه الخاصة به ، واتجهت إلى غرفتى متظاهرًا أننى لا أبالى بكل فوهات المدافع المصوبة فى كل اتجاه .. »

أغلقت الباب علىّ ، وفتحت الوريقة الموجودة فى جيبى ، وقلبى يثب فى صدرى .. كانت مكتوبة بخط جميل وبالفرنسية ..

« تشجعوا .. »

« هناك فرقة (كوماندوز) إنجليزية يقودها البريجادير (ريتشارد جيوفرى) ، قادمة إلى (أنجا وانديرى) جوًا ، وهى فرقة مختصة بإطلاق سراح الرهائن .. يتم الإنزال بالهليوكوبتر فوق سطح الوحدة فى تمام الخامسة مساءً . مطلوب إبعاد الإرهابيين عن مراقبة السطح فى ذلك الوقت .. يمكن إحداث شغب أو فوضى لتشتيت انتباههم .. »

قرأت الورقة مرتين .. ثم مزقتها إربًا وألقيت بها فى القمامة .. أنا أعرف فرق مكافحة الإرهاب الدولية هذه ، ولا بد أن حكومة (الكاميرون) استأجرت أفضلها لتتحاشى الحرج أمام العالم ، وحتى لا تخاطر بتدخل الجيش الكاميرونى فتقع دماؤنا على رأسها لو حدث شىء ..

لكن الكلام هيّن .. كيف يمكن تمرير هذه الرسالة وإحداث الشغب المطلوب دون خسائر مادية أو بشرية ؟

بل - والأدهى - كيف أفعل أنا هذا كله ؟

* * *

١٩ أكتوبر عام ١٩٩٧
الساعة ٣,٤٠ مساءً

نزلت إلى الكافتيريا لأتناول غدائى ، وكانت مزدحمة بالأطباء ، لكن بها عددًا لا بأس به من الإرهابيين طبعًا ، وكلهم شاهر سلاحه ..

دنوت لأضع فى صحفتى بعض الطعام ، ولاحظت أن رجال الفصيلة ينتظرون فى أدب حتى نأكل نحن .. ثم فطنت إلى أن هذا ليس تأدبًا بل هو احتياط ، علنا دسسنا لهم فى الطعام مخدرًا ما ..

جلست جوار (بسّام) والبروفسور الإيطالى العظيم (كارلو سباتزانى) و(بيير) طبيب العناية المركزة .. إن (سباتزانى) ـ طبعًا ـ لا يقيم فى (سافارى) بل فى فيلا فاخرة قرب (باتورى) ، لكن أحدًا لن يعود لداره طبعًا حتى تنتهى هذه الكارثة ..

رحنا نأكل فى صمت .. كان التوتّر يقهر كل رغبة فى تبادل الكلام.. إلا أننى كنت مسرورًا ؛ لأننى جالس

على مائدة طعام واحدة مع (سباتزانى) .. بشكل ما أشعر أننى فى ذات عالمه .. ربّاه ! لقد كنت منبهرًا بهذا الرجل انبهار مراهقة خرقاء بمطرب الشباب الأول ، وكنت أندهش بحق كلما رأيته يأكل أو يشرب أو يتمخط فى منديله ..

قلت لهم فى هدوء بعد ما تلفتُّ حولى :

ـ « ثمة خبر لا بأس به .. إن البريطانيين قادمون لإنقاذنا .. فرقة بريطانية محمولة جوًا ستحاول النزول على سطح البناية .. »

بصوته الكفيل بإيقاظ الموتى صاح (سباتزانى) :

ـ « من ؟ بريطانيون ؟ »

همست وقد انتصب شعرى ذعرًا :

ـ « بروفسور ! هذا سرّ يساوى حياتنا ذاتها ، ولا أحبّ أن تذيعه فى مكبّر الصوت.. إنهم يسمونها : (فرقة البريجادير جيوفرى) .. »

ثم همست بعد ما أعدت التلفت حولى :

ـ « الموعد هو الخامسة مساءً .. على كل منكم أن يخبر أكبر عدد ممكن .. وعلينا إحداث ضوضاء مناسبة فى هذا الوقت .. »

ـ « ضوضاء ؟ مثل ماذا ؟ »

كدت أصارحه أنه يكفيه أن يتكلم لتكون ضوضاء كافية .. هؤلاء الإيطاليون لا يعرفون معنى الهمس أبدًا .

قلت وفي عيني بعض اللوم :

ـ « أعتقد أن الحريق هو الصيغة الأنسب .. هل يمكن لـ (بسّام) أن يشعل نارًا في المخزن ؟ »

ابتسم (بسّام) :

ـ « ولماذا أنا بالذات ؟ »

ـ « لأنك تعمل اليوم في قسم الأشعة ، وهو مجاور للمخزن .. لن يكون اختفاؤك مثيرًا للشكوك ولبضع دقائق ..

ـ « ليكن .. بعض البنزين وعود ثقاب .. »

ـ « توكلنا على الله .. ستفعل ذلك في الخامسة إلا الربع .. ولنعمل على أن يصاب كل الأطباء بالذعر في الخامسة بالضبط .. سيكون كثير من الدخان ورائحة الشياط ، ولسوف تعمل أجهزة الإنذار ضد الحريق .. هذا كافٍ .. مرروا هذه الرسالة .. »

ثم نهضت، باحثًا عن آخرين أخبرهم بالشيء ذاته..

* * *

ثالث الفصول

ويحكي عن محاولات النجاة وأكثرها بلا جدوى

١٩ أكتوبر عام ١٩٩٧
الساعة ٤,٣٠ مساءً

اتجهت إلى مكتب المدير لأعطيه (التمام) من طرف خفى .. الغريب هنا أنه آخر من يعلم بما اتفقنا عليه ، فهو حتى لم يقرأ الورقة التى أعطاها لى ، ولكنه استنتج محتواها دون جهد ، فلا بد أن هناك من لمّح له هاتفيًا بذلك ..

لم يكن المدير هناك .. أخبرتنى بهذا السكرتيرة الحسناء ، وكان بابه مواربًا .. فاستطعت أن أرى (بلاكلى) جالسًا هناك خلف المكتب ، يمسك سماعة الهاتف ، و(إيمرى) قد أزاح ساقيه بدوره على المكتب وراح يدخّن ويتكلم ..

لم يكن من داع إذن للدخول ..

ـ « وأين ذهب ؟ »

ـ « لقد سمحوا له بالقيام بجولة فى الوحدة .. »

« هنا انفتح الباب الموارب أكثر ليبرز لى وجه

أمقته بشكل خاص .. (ديفيد ليفى) طبيب العيون الإسرائيلى .. خرج مارًا بى فهزّ رأسه بما يعنى التحية أو شيئًا من هذا القبيل ، وغادر غرفة السكرتيرة .. »

ـ « ماذا يفعل هذا هنا ؟ »

قالت وهى تخرج طلاء الأظفار من حقيبتها :

ـ « نفس ما تفعله أنت هنا .. يتلقى التعليمات أو يشكو مضايقة ما .. »

وبدقة قامت بطلاء ظفرين ، ثم فردت يدها فى الضوء تتأملهما :

ـ « ما رأيك ؟ هل هى نفس الدرجة ؟ »

قلت لها ما معناه (ناس فايقة وناس رايقة) ، وإننى سعيد حقًا ، لأنها تجد السعة النفسية للتجميل فى ظروف كهذه ، وأردفت :

ـ « ليس من مصلحتك كذلك أن يراك هؤلاء الأوغاد جميلة .. إن الأمهات فى (روسيا) كن يلوثن وجوه بناتهن بروث الماشية حينما يدخل النازيون قراهم .. »

هزّت يدها مرارًا ونفختها ليجف الطلاء سريعًا ، وقالت :

- « معك بعض الحق .. لقد حاول ذلك الوغد الملتحى مضايقتى ، لكن الميجور (بلاكلى) صارم جدًا ، ورجاله يخشونه حقًا .. الحق إنه رجل قوى ..»

هززت رأسى موافقًا :

- « لكنه للأسف فى المعسكر الخطأ ، ولن ينتهى اليوم قبل أن يموت هو أو نحن .. لكنى أرتجف هلعًا لفكرة أن يموت هو ويترك رجاله أحرارًا !

ثم هززت رأسى للمرة الثانية ، بمعنى أننى راغب فى الرحيل ..

هنا سمعت الميجور (بلاكلى) ينادينى من مكتب المدير :

- « هيه يا دكتور .. هلا جئت لحظة ؟ »

ابتلعت ريقى ، ودخلت المكتب .. رأيت (بلاكلى) قد وضع ساقه المصابة بالـ (غنغرينا) على مقعد أمامه وفك أربطتها ، ولم تكن الرائحة محببة على الإطلاق كما قلت ..

هنا هتف الأسترالى (إيمرى) فى شراسة ، وقد ثبت عينيه على وجهى :

- « فيم كنت تتحدث مع السكرتيرة ؟ »

تأوه الميجور بصوت عال ، وقال ضاربًا على كتف (إيمرى) :

- « كف عن هذه التفاهات يا (تشارلز) .. والآن يا دكتور لقد قمت بتضميد ساقى ببراعة أمس ، وأنا راغب فى تضميدها الآن .. هلا طلبت لوازم التطهير والتضميد ؟ »

ثم أشار إلى (إيمرى) إشارة ذات معنى ، وقال :

- « وأنت .. تحرك سريعًا .. كلكم يعرف ما ينبغى عمله .. »

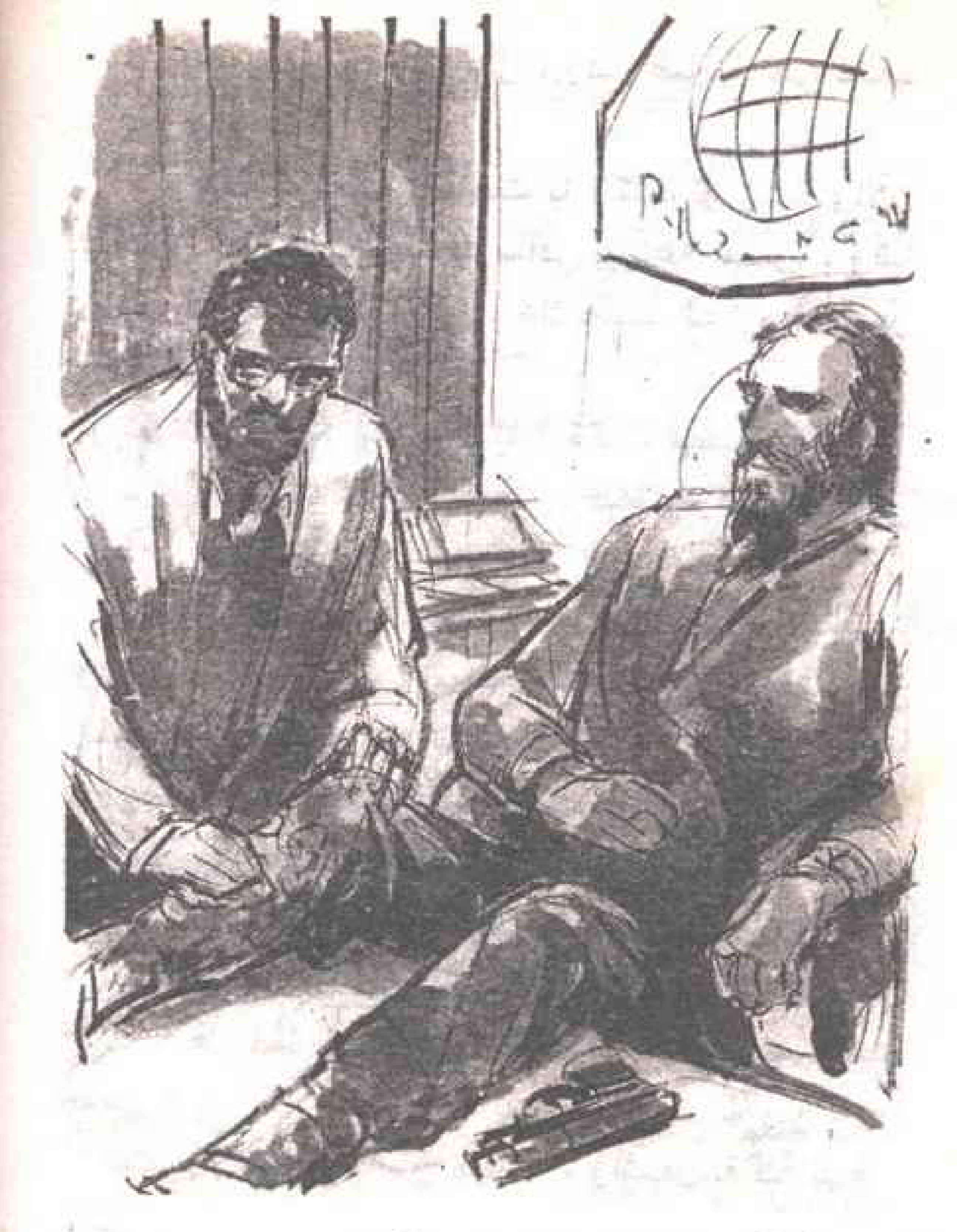
تناول (إيمرى) بندقيته الآلية من على المكتب ، ودس خنجرًا فى ربطة ساقه ، ثم غادر المكان على الفور ، تاركًا إياى مع الميجور ..

وطلبت من السكرتيرة أن تتصل بقسم الجراحة ، لإرسال من يحضر الضمادات المعقمة لى فى مكتب المدير .. وقد كان ..

ورحت أطهر الساق بشعة المنظر ، وسألته :

- « هل حقًا أصبت فى أحد فخاخ النمور كما قلت أمس ؟ »

ابتسم والعرق يغمر جبينه ، وأشعل لفافة تبغ ، وقال :



ورحت أطهّر الساق بشعة المنظر ، وسألته :

ـ «هل حقًا أصبت فى أحد فخاخ النمور كما قلت أمس ؟» ..

ـ « بالطبع لا .. إنه لغم أرضى .. لكن ما كان بوسعى أن أقول هذا .. »

ثم سألنى من جديد :

ـ « هل ستشفى ؟ »

ـ « لا أظن .. »

ـ « قلت لى أمس إنها ستشفى .. »

ـ « كل كلامنا أمس كان كذبًا من الطرفين .. وكنت أنا طبيبًا وأنت مريضًا .. اليوم أنت قرصان وأنا ضحية ، وقد زالت كل حواجز المجاملة بين الطرفين .. دعنى أقل لك يا سيدى إن هذه الساق يجب أن تبتر وإلا هى نهايتك .. »

بدا مستمتعًا بهذه المحادثة .. ابتسامة شاعت على وجهه ، وساد الصمت برهة .. ثم سألته وقد خيل لى لحظة أننى أسمع طلقة رصاص من تحت :

ـ « متزوج ؟ »

ـ « كثيرًا جدًا ! تزوجت مرتين فى وطنى ، ثم تزوجت ثلاث مرات فى (إفريقيا) .. زوجتى الأخيرة كونغولية لا أعرف عنها شيئًا منذ زمن .. وأنت ؟ »

ـ « ليس بعد .. »

ـ « إذن لا تفعل أبدًا .. إن لأطفالك القادمين عليك حقًا ، وحقهم هو ألا تأتى بهم إلى هذا العالم القاسى ! »

وابتسم من جديد فى مرارة ، بينما فرغت أنا من تضميد الجرح .. سألته :

ـ « ميجور .. هل حقًا لديك أدنى أمل فى نجاح محاولتكم هذه ؟ »

فقد بدا لى مستحيلاً أن تجئ طائرة تحمل هؤلاء إلى مطار (دوالا) ، ثم يودعونهم ، ويعطون (بلاكلى) مظروفًا به عشرة ملايين من الجنيهات .. كل شىء قد يحدث إلا هذا ..

قال وهو يشعل لفافة تبغ ثانية من بقايا الأولى :

ـ « يبدو الأمر خياليًا .. هه ؟ لكنى قد رأيت صفقات كثيرة فى حياتى ، ولم تكن هذه أغربها ، سيرضخون لنا .. ثق فى هذا .. سيتعلمون درسًا قاسيًا .. »

ونظرت إلى ساعتى ..

الآن هى الخامسة مساء بالضبط ..

لقد حان الوقت إذن .. وسرعان ما بدأت أصوات الانفجارات ..

* * *

الأربعاء ١٩ أكتوبر
الساعة ٥,٠٠ مساءً

ارتجَ المبنى كله لصوت انفجار عظيم مروّع ، حتى إن مقعدى تزحزح قليلاً .. وتهشم زجاج النافذة ..

نظرت إلى الميجور فوجدته جالسًا بذات الهدوء ، يتأمل ساقه المضمدة ..

وسمعت صوت طلقات من بندقية آلية .. وصوت صراخ .. ثم امتلأ هواء الغرفة بالدخان ورائحة البارود .. انفجاران .. بل ثلاثة ..

فى هدوء دون سرعة زائدة تناول الميجور جهاز الـ (ووكى توكى) الموضوع بجواره ، وطلب أحدهم ..

ـ « (جيمس) ؟ هنا (بلاكلى) .. كل شىء على ما يُرام ؟ حسن .. تعال لتقدم تقريرك الآن .. »

عند سماع هذا شعرت بعسر فى تنفسى ، وبأن ساقىَ لم تعودا تتحمّلانى .. لقد حدث شىء ما خطأ ولكن ما هو ؟

* * *

بعد دقائق دخل الغرفة الزنجى العملاق (جيمس ماكجراث) مسلحًا كالعادة ، ومن خلفه رأيت الفرنسى ذا الشارب .. ثم (جالاجر) وهو يدفع شابًا جريحًا تلوث كتف معطفه بالدم ، لكنه ما زال قادر على المشى ..

ـ « (بسام) ! »

ونهضت مسرعًا إلى صديقى التونسى ، فساعدته على الجلوس فى وضع شبيه بالرقاد ، وأزلت الثياب عن أعلى صدره .. كان كتفه ممزقًا بفعل رصاصة ، لكنها لم تدمّر شيئًا حيويًا على ما أظن .. اهدأ يا بنى .. اهدأ ..

دون أن ينظر (بلاكلى) لرجاله سأل بصوت حازم :

ـ « تقريركم ؟ »

أدّى الزنجى تحية عسكرية غير متقنة ربما هى أقرب للمزاح ، وقال بصوته الغليظ :

ـ « تمام يا سيّدى .. لقد فجّرنا طائرة وأعطبنا الأخرى ، أما المداخل فقد فجرناها جميعًا ! »

ـ « أحسنتم صنعًا .. والآن عودوا لمراكزكم .. »

تساءل (جالاجر) وهو يشير لـ (بسام) :

ـ « وهذا ؟ ألن نقتله الآن ؟ »

ـ « لا داعى .. إنه عبرة للآخرين لا بأس بها .. لقد نال جزاءه .. »

ثم أشار بدوره إليه :

ـ « يمكنكم اصطحابه إلى قسم الجراحة .. لكن لا تؤذوه أكثر .. »

* * *

فما إن غادر هؤلاء الغرفة ، حتى صحت متسائلاً :

ـ « باللّه عليك ماذا يحدث هنا ؟ »

طوّح بلفافة تبغه إلى ركن الغرفة ، وقال باسمًا :

ـ « يحدث أن أصدقاءك فشلوا فى مهمتهم ! »

وإذ رأى الذهول الغبى على وجهى قال :

ـ « لا تخش شيئًا .. إننى أعرف كل شىء عن هجوم الساعة الخامسة تحت إشراف البريجادير (جيوفرى) ، وأعرف أن صديقك التونسى سيحاول إشعال حريق لجذب الانتباه .. لقد كان (جالاجر) ينتظره فى المخزن ، ولم تكن مفاجأة سارة .. »

ـ « أما عن الهجوم فأنا أعرف البريجادير (جيوفرى) ككتاب مفتوح ، وهو رجل بارع ، لكنه

يتصرف بالأسلوب ذاته .. لا بد من هجوم بالهليوكوبتر من سطح البناية مع إنزال ، وهجوم من تحت ، عبر شبكة المجارى الخاصة بـ (سافارى) ، والتى لا بد أنه حصل على رسومها فى (أنجاوانديرى) .. »

« فى البداية قاموا بتصوير المبنى والسطح من عدة جهات .. لكنهم لم يروا (الكاموفلاج) أو التمويه الذى قمنا بعمله ببراعة على السطح ، وتحته دارينا ثلاثة مدافع (بازوكا) وخمسة من رجالنا .. وهكذا حين دنت طائرتاهم المستعدتان للإنزال ، استطاع رجالى إطلاق (البازوكا) من مسافة قريبة جدًّا .. لم يكن ثمة مجال للخطأ ، واحترقت الطائرتان بمن فيهما من رجال (كوماندوز) محترفين يساوون الملايين .. »

« أما عن شبكة المجارى فقد تهيأنا لإشعالها فى اللحظة المناسبة .. أغرقناها بالجازولين وأحكمنا غلقها ، وفى تمام الخامسة أسقط رجالى عدة قنابل يدوية فى الفتحات لتتحول إلى جحيم .. »

« لو كان (جيوفرى) قد تصرّف كعادته ، فأغلب الظن أن رجاله قد تحولوا إلى شواء الآن .. »

« وللأمانة دعنى أصارحك أنه لو دخل رجل واحد من هؤلاء إلى (سافارى) لاستطاع إحداث متاعب جمة لنا .. هؤلاء الرجال محترفون حقًا ، ويعرفون كيف يطلقون الطلقة على المجرم والرهينة معًا ، فلا تصيب إلا المجرم ، وغالبًا ما كانوا سيبدءون بهجوم بالغاز المنوّم .. هذا هو أسلوبهم المعتاد .. لن نعرف أبدًا .. »

وساد الصمت ..

لكن فؤادى كان يخفق كالطبل رعبًا وتوترًا ..

الحق إنه لمأزق مخيف ، للمرة الأولى أدرك أن فرارنا لن يتم إلا بمعجزة ..

* * *

الأربعاء ١٩ أكتوبر
الساعة ٥,٤٥ مساءً

خرجت مبلبل الفكر من مكتب المدير ..

فبينما أنا ماش فى الممر المؤدى إلى قسم الاستقبال ، رأيت المدير واقفًا مع (ليفى) يتحدثان فيما لم أستوعبه ..

إن المعجزات نادرة الحدوث ، وقد يكون (بلاكلى) بارعًا فى عمله لكنه بالتأكيد لا يقرأ الأفكار ، ولو قرأها فلن يعرف اسم (جيوفرى) بالذات كونه يعرف هذا كله يدلَ بوضوح على وجود تسرب فى المعلومات .. خيانة ..

أحدهم فعل هذا فمن ؟

أنا لم أر أحدًا يكلم (بلاكلى) على انفراد إلا هذا ، وبعد ما غادر الغرفة قال (بلاكلى) لمن معه : تحرك سريعًا ..

وهكذا ـ قبل أن أفهم أنا نفسى ما حدث ـ وثبت على (ليفى) بكل ثقلى فسقط أرضًا .. انتزعت

العوينات من على عينه ثم وجهت لرأسه (روسية) رهيبة كالتى يتبادلها (الفتوات) فى السلخانة عندنا ..

وأنشبت مخالبى فى عنقه ، مضيفًا تأثيرًا أفضل بطرق مؤخرة رأسه بالأرض مرارًا ، حتى إن لم يختنق قتله الارتجاج ..

والغريب هنا أن الإرهابيين من رجال الفصيلة احتشدوا حولنا .. شعرت بهذا .. لكنهم لم يتدخلوا بل راحوا يضحكون ويصفرون مشجعين ..

كانت هذه طريقة التفاهم التى يفهمونها هم بين رجلين ، ووجدوا فيها تسلية لا بأس بها ، ولا بد أنهم بدءوا المراهنات على من يموت أولاً ، لولا أن تدخل (بارتلييه) ..

ـ « (علاء) ! »

وشعرت بيده المكتنزة على كتفى :

ـ « (علاء) ! لو لم تتركه حالاً اعتبر نفسك مفصولاً .. »

كدت أقول له إننى ـ كى أفصل ـ يجب أن أظل حيًا .. ثم خضعت للاحترام الواجب للسن والمركز .. فتركت فريستى على الأرض ، ونهضت أرغى وأزبد وألهث كثيران المصارعة ..

- « هل جننت ؟ »

وتحامل (ليفى) على نفسه ليجلس ، والدم يسيل من أنفه ، وصاح فى جنون وهو يشير إلىّ :

- « بروفسور (بارتلييه) .. أنت شاهدى على أن هذا المخبول قد وصل لنهاية المسار .. »

قلت له فى اشمئزاز :

- « أيها الواشى القذر ! أنا لم أنته منك بعد ..»

- « واش ؟! »

تساءل المدير فى عدم فهم ، فشرحت له القصة كلها - بالفرنسية طبعًا وهمسًا - وقلت بوضوح إننى أتهم (ليفى) بإبلاغ المرتزقة بخطة الحكومة الكاميرونية للاقتحام .. ولماذا يفعل ؟ لأنه خسيس يا سيدى وجبان ، ومن مصلحته أن يحسن أسهمه لدى المرتزقة ، فإن فشل الهجوم كان له وضع خاص يحميه من الإعدام ، وإن نجح فلن يصدق أحد حرفًا ..

صاح (ليفى) غاضبًا بدوره :

- « هذا اتهام بلا أساس ، ولسوف تدفع لى ثمن إهانة كهذه » .

قال المدير بدوره وهو يساعد الفتى على النهوض.

- « هذا صحيح يا (علاء) .. لقد كان هناك نحو مائة يعرفون السرّ ، فلماذا (ليفى) بالذات ؟ يجب أن ترتفع بعض الوقت فوق الخلافات المعروفة بينكما .. وعلى كل حال - وبشكل ما - يمكن القول إن من وشَى بهذه الوشاية قد جنبنا فقد المزيد من الأرواح ، فما كانت العملية لتتم ببساطة مع استعداد هؤلاء القوم وتدريبهم الجيد ! »

أما وقد وصلت الأمور إلى هذا الحدّ ؛ لم أر مناصًا من الانصراف .

لن أعرف أبدًا ما إذا كان (ليفى) هو المسئول أم لا .. وبدقة أكثر لن أثبت هذا أبدًا ..

لا يوجد الآن ما أفعله سوى العودة لحجرتى ، والانتظار ..

إنها السادسة والربع الآن ، وأمامنا أقل من ثلاث ساعات قبل انتهاء المدة المحددة ..

ماذا سيحدث قبلها ؟

والأهم : ماذا سيحدث بعدها ؟

قبل أن أعود لغرفتى قررت أن أذهب لأطمئن على (بسّام) فى قسم الجراحة .. كان الرجل الذى يضع عصابة على عينيه يقف جوار الباب يتفحص الداخلين بعينه الوحيدة السليمة .. ولم يعلق حين دخلت .

كان (بسَّام) فى فراشه الآن ، وقد جلس جواره (سباتزانى) الإيطالى يمازحه ، وأدركت أنه هو من اعتنى بالرصاصة .

قلت له وأنا أربت على ساقه :

- « آسف يا أخى .. لقد كنت أنا السبب المباشر لما حدث .. »

- « لا عليك.. فيما بعد ذكّرنى بأن أطلق الرصاص على كتفك لنتساوى .. »

رأيت (سباتزانى) يملأ محقنًا بالمضاد الحيوى ، ثم يفرغه فى عروق (بسام) ، وجفف قطرة الدماء بقطعة إسفنج صغيرة ، ونهض ..

- « لقد حان وقت نومى يا شباب .. لا توقظونى إلا حينما يجىء دورى فى الإعدام .. »

- « لك هذا يا سيدى .. »

وودعت (بسّام) بدورى عازمًا على العودة إلى غرفتى ..

وخطرت لى فكرة ما تجاهلتها على الفور ..

إنها شديدة التعقيد على كل حال ..

* * *

الأربعاء ١٩ أكتوبر
الساعة التاسعة مساءً

فى تمام التاسعة جاء صوت الموظفة عبر مكبرات الصوت يدعو طاقم (سافارى) إلى الاحتشاد فى قاعة (التيوتور) ، وهذه المرّة تقلصت الأحشاء جميعًا ، وقد فهم الجميع معنى هذه الدعوة .

توجهنا إلى هناك متثاقلين ، ورأيت المرتزقة يقتحمون غرفةً تلو أخرى، ويفتشون قاعة تلو قاعة ، كى يستوثقوا من أن أحدًا لم يتخلف ما عدا المرضى طبعًا ..

وإذ احتشدنا هناك ، جاء المدير يتدحرج وإن كانت دحرجته أقل حيويةً من المعتاد ، وبدا لى وجهه المهموم كجورب مقلوب بعد خلعه، من كثرة ما فيه من تجاعيد..

بعد دقائق جاء الميجور (بلاكلى) بعكازه الشهير، ولم يبدُ مسرورًا أو راضيًا ، وسمعته يصدر التعليمات لرجاله :

- « هل كل شىء على ما يُرام على السطح ؟ فتحات التهوية .. الأبواب ؟ لا نريد قنابل غاز من أية فتحة .. كم رجلاً عند السطح؟ خمسة ؟ لا بأس.. (إيمرى) ! من يراقب الهاتف؟ (روجرز) ؟ حسن .. »

ثم وقف على المنصة وتأمل وجوهنا ، وبعد هنيهة صمت ، قال فى هدوء وبالفرنسية :

- « كما ترون لم يبدُ ما يشير إلى استجابة هؤلاء القوم لنا .. ويبدو أن الوقت قد حان لاتباع وسائل ضغط أقوى .. »

كان موقفًا قاسيًا بحق .. لكن الأسوأ من قسوته هو ما فيه من إهانة .. بأى حق يعتبرنا هؤلاء خرافًا يجمعونها فى مكان واحد تمهيدًا للذبح ؟ بحق السلاح ؟ بمسدس رخيص يملكون حاضرنا ومستقبلنا .. ولمجرّد أنهم أمسكوا به أولاً ؟

واصل الميجور كلامه متظاهرًا بالتأثر :

- « نأمل ألا يطول هذا الموقف ، وأن تتعقل حكوماتكم بعض الشىء ، وحتى ذلك الحين لا نجد مناصًا من البدء فى تنفيذ برنامجنا .. »

ثم أشار إلى موضع ما وسط الجالسين :

- « يمكنكم البدء بهذا ! »

* * *

للمرة الأولى فى حياتى رأيت إصبعًا يكتسب قوة صاعقة كاسحة كهذه ، حتى خيل إلىَّ أن خطًا خفيًا من نار يخرج من الإصبع قاصدًا هدفه .. ورأيت المحيطين بالهدف يتحركون يمينًا ويسارًا وخلفًا ؛ حتى لا يلمسهم هذا الشعاع الملتهب ..

وتحسس أكثر من واحد صدره فى هلع :

- « أنا ؟ »

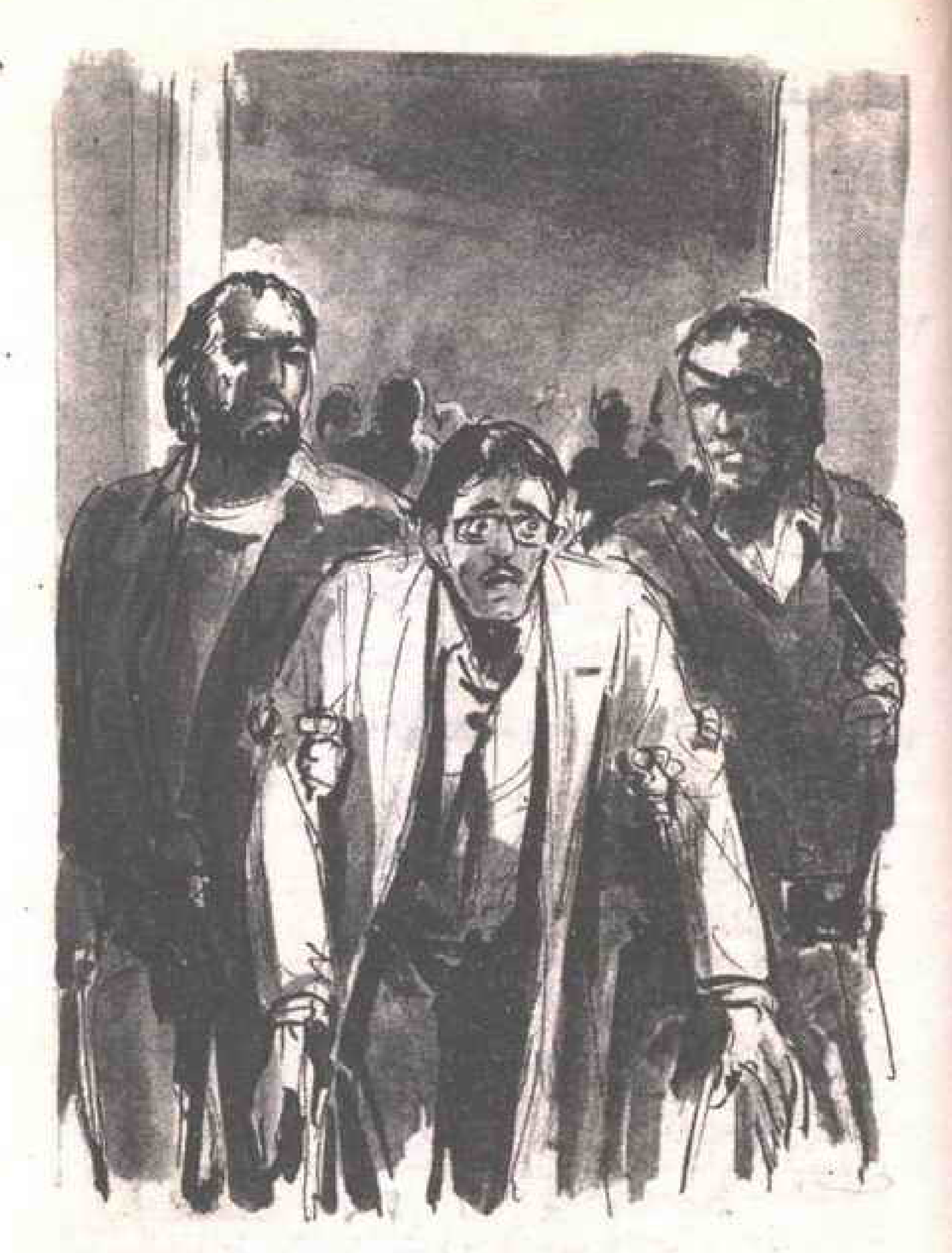
- « أنا ؟ »

- « أنا ؟ »

- « بل أنت ! الملتحى الذى يلبس رباط العنق ! »

وعرفت على الفور عمن يتكلم .. (آرداش) طبيب التخدير الإيرانى ، ورأيت اثنين من الأوغاد يشقان الصفوف نحوه ، فيحملانه من إبطيه وهو عاجز تمامًا عن فهم ما يحدث .. وبرغمهم تنفس المحيطون به الصعداء .. فلم يصبهم اللهب بعد لحسن الحظ ..

قال الميجور وهو يشعل لفافة تبغ :



وساد صمت رهيب بينما (آرداش) يمشى زائغ العينين مرتبك الخُطا بين الرجلين ، نحو خارج القاعة . .

- « فلتنهيا الأمر بسرعة فى الخارج .. بسرعة ودون ألم ! »

وساد صمت رهيب بينما (آرداش) يمشى زائغ العينين مرتبك الخطا بين الرجلين ، نحو خارج القاعة ..

صاح المدير بلهجة أقرب إلى البكاء :

- « أستحلفك باللّه أن تتركه .. لا داعى لهذا التمادى »

لم يعلق الميجور ، واستند إلى عكازه عازمًا على الانصراف ، وعلى مكبر الصوت مال برأسه وقال :

- « ستبقون هنا جميعًا يا سادة ، وسيتم إطلاق الرصاص على من يحاول الهرب أو يبدى تمردًا .. الإعدام الثانى بعد ساعة من الآن ! »

وانصرف مبتعدًا ..

على حين سقط رأس البروفسور (بارتلييه) على المنضدة ، فهو لم يعد يتحمله بعد هذا الجهد العصبى كله ..

ساد صمت بليغ لم يقطعه إلا صوت دفعة قصيرة بالمدافع الرشاشة قادمة من خارج البناية ، فتصاعدت

شهقات ، ودفنت بعض النسوة وجوههن فى أكفهن .. كانت هذه أقصر وأشنع برقية تلقيتها فى حياتى ..

* * *

وفيما بعد عرفت أنهم فتحوا باب (سافارى) الرئيسى ، وجرّوا الجثة جرًّا ليلقوها على الغبار ، أمام مراسلى وكالات الأنباء المتزاحمين ، ووحدات الجيش الكاميرونى العاجزة عن عمل شىء ..

ودون كلمة أخرى عادوا إلى البناية وأغلقوا الباب ..

* * *

الأربعاء ١٩ أكتوبر
الساعة ٩,٤٠ مساءً

لم يكن هناك ما نفعله سوى الانتظار ..

سمعت حفيف معطف بقربى ، ثم جلس شبح رقيق بجوارى .. نظرت إلى (برنادت) وخطر لى أن ألومها على ترك غرفتها ، ثم أدركت أن هذا لم يكن بيدها .. لا بد أنهم أرغموها إرغامًا ..

ـ « هاى (علاء) .. »

سألتها فى رفق وأنا أنظر لساعتى :

ـ « خائفة ؟ »

ـ « قليلاً .. إن قاعدة (يحدث للآخرين فقط) ما زالت تؤدى عملها معى ..لكنى أمقت الجلوس هكذا بانتظار مصيرى .. »

ابتسمتُ فى مرارة :

ـ « كلّ ما عليك هو النهوض والاتجاه للباب ،

وعندها تنتهى مشاكلك حالاً .. وعلى كل حال يوجد احتمال واحد فى المائتين أن يتم اختيارك أنت فى الساعة العاشرة ! »

- « بل هو واحد فى التسع والتسعين والمائة .. إن النسبة لم تعد مطمئنة .. »

ثم تثاءبت وقالت :

- « على كل حال أنا لا أخاف الموت ، لكنى أخاف مقدماته .. »

- « إن من لا يخاف الموت هو إنسان واهن الإيمان ، لا يعتقد بوجود حساب ، أو هو ببساطة أحمق .. نوع من غرور الأطفال الذين يتباهون طيلة الوقت بأنهم لا يخافون الأسد ، وهم لا يعرفونه حقًا ولا يفهمون خطره »

- « إذن أنت خائف ؟ »

- « جدًا .. ولولا بقية من كبرياء لبكيت .. »

- « يا صغيرى العزيز .. ماذا فعلوا بك ؟ »

وامتدت يدها الباردة البللورية تربّت على ظهر يدى .. ساعتها شعرت حقيقةً بأن البكاء ضرورة حيوية لا غنى عنها .. إن البكاء كالعرق .. فلماذا نمنع الرجل من أن يبكى ونسمح له بأن يعرق ؟ »

كانت عقارب الساعة تدنو من العاشرة .. الموعد المرتقَب للعبة (الروليت الروسى) الرهيبة ، وراح المرتزقة يتهامسون ويشيرون إلينا .. لا بد أنهم يعقدون الرهان حول الضحية التالية .. كانوا ينعمون بوقتهم حقًا ..

هنا دخل (جيمس ماكجراث) القاعة وتقدَم نحو جهاز الميكروفون ، أمام العيون القلقة .. صوت القرقعة إذ يمسك بالجهاز ..

وبشفتيه الغليظتين قال :

- « دكتور (عبد العظيم) .. (علاء عبد العظيم) .. أين هو ؟! »

سقط قلبى فى قدمى .. وانتابنى شعور بأن كل هذا غير حقيقى ..

وشعرت بيد (برنادت) تعتصر كفى حتى كادت تسحقها ..

وسمعتها تهمس من وراء المجرات ..

- « تشجع يا صغيرى .. تشجع ! »

* * *

الأربعاء ١٩ أكتوبر
الساعة ٠٠ , ١٠ مساءً

فى صمت مشيت خلفه وسط العيون المتوجسة أو المشفقة أو الفضولية أو التى شعرت بالراحة ! لا تزعجوا أنفسكم يا رفاق.. لا داعٍ للاهتمام الزائد.. إننى ذاهب إلى حيث يطلقون علىَ الرصاص.. لا شىء يستأهل كل هذه الضوضاء كما ترون .. ترى من الذى سيقوم بإجراءات استلام جثتى فى المطار من مندوب وزارة الخارجية ؟ أخى؟ لا .. لا .. لا يمكن .. فهو من النوع المرتبك الذى يغرق فى شبر ماء .. إن (أشرف) صديقى يجيد هذه الأمور .. ولكن من يتحمل مصاريف الشحن ؟ ..

عرفت أننا نتجه إلى مكتب المدير .. غريب هذا ..

دخلنا إلى المكتب فلم تكن هناك سكرتيرة - كانت فى قاعة الإعدام مع الآخرين - لنجد الميجور (بلاكلى) وجواره المدير ..

رأى (بلاكلى) النظرة على وجهى ، فنظر لساعته وضحك وقد فهم :

- « يا لك من بائس ! نحن لن نؤذيك ! الصدفة هى ما دعانا إلى استدعائك فى تمام العاشرة .. »

ثم أشار إلى ساقه التى اتسخت أربطتها ، وقال :

- « أريد غيارًا جديدًا ، وأريد جرعة من المصل مع مضاد حيوى .. يجب أن تعيد لى القدرة على التفكير الصافى حالاً .. »

ثم أومأ إلى الزنجى ، ولوح بمسدسه :

- « يمكنك الانصراف يا (ماكجراث) .. عُد للقاعة واختر ضحية أخرى .. احرص على أن تكون أمريكية أو أوروبية على سبيل التنويع .. ولا تخش شيئًا فأنا مسلّح كما ترى .. »

صدع الزنجى بالأوامر وانصرف ..

قلت وأنا أنهض :

- « لا بد من أن أحضر أدوات الغيار من قسم الجراحة .. »

بدا على الميجور بعض التردّد ، ثم هزّ رأسه موافقًا :

ـ « لا تحاول العبث .. فليس كل رجالى فى القاعة .. »

ـ « لا أحلم بهذا .. »

وغادرت المكتب .. وقعت عيناى على مكتب السكرتيرة الخاوى ، وعليه ملفاتها وأجندة مواعيدها ، وجهاز الكاسيت الصغير جدًا الذى تسمع به أغانى (شارل أزنافور) خلسة .. وشعرت بغصة فى حلقى ..

واتجهت إلى قسم الجراحة ، حيث انتقيت بعض أدوات الغيار ووضعتها على منضدة ذات عجلات .. لم يكن هناك أطباء ولا ممرضات .. كلهم فى قاعة المحاضرات الرهيبة ..

الإيذاء .. الإيذاء .. لا بد من إيذاء هؤلاء الأوغاد ولكن كيف ؟ هم يملكون القنابل والبنادق ، وأنا طبيب لا أملك سوى الضمادات والمحاقن و ..... رباه !

يا لى من أحمق !

* * *

الأربعاء ١٩ أكتوبر
الساعة ١٠,٤٥ مساءً

عدت إلى غرفة المدير ، ورفعت ساق الميجور إلى مقعد جلدى هناك ، وكان ممسكًا بجهاز الـ (ووكى توكى) يتحدث إلى رجاله :

ـ « هل فرغتم ؟ لم أسمع طلقات .. ماذا ؟ بكاتم الصوت ؟ لا يا حمقى .. نحن نريد إحداث جلبة وإثارة ذعر .. لسنا بصدد عملية (كوماندوز) سرية .. وهل ألقيتم بالجثة ؟ حسن .. من هى ؟ »

وساد صمت ثقيل بينما هو يصغى ، ثم عاد يتكلم .

ـ « كندية ؟ طبيبة كندية ؟ حسن ! »

هنا تصلبت واسودت الغرفة أمامى ، وتبادلت نظرة قلقة مع البروفسور (بارتلبيه) ، وفى بطء تقلصت يدى على المقص الذى أزلت به الضمادات .. وقد أدركت أن ما سأفعله محدد جدًا ..

هنا عاد صوت الميجور :

- « هل قاوم ؟ لا ؟ ليكن .. فى تمام الحادية عشرة انتخبوا ضحية تالية ما دام الأوغاد بالخارج صامتين كالأسماك (روجر) .. »

من جديد عادت الدماء تجرى فى عروقى ..

لقد نسيت أن اللغة الإنجليزية لا تؤنث الصفات ، وقد تعنى لفظه (Canadian Physician) طبيبًا كنديًّا أو طبيبة كندية ، فلم أعرف الحقيقة إلا حين قال (Did he put up a fight ?) .. لقد تكفل خيالى القلق بترجمة ما قاله إلى الصفة المؤنثة ..

شرعت فى عملية التضميد كالعادة ، وكانت حالة الجرح تزداد سوءًا بالتأكيد .. قلت له فى ضيق :

- « لا جدوى من المزيد.. لا بد من البتر حالاً ! »

صاح فى عصبية - وهى من المرات النادرة التى فقد أعصابه فيها .. وهو يضرب المكتب .. » :

- « افعل كما قلت لك ! هذا أمر .. فنفذه ! »

شعرت بسرور شديد .. لكنى لم أظهر هذا على وجهى ، ورحت أمارس مهمتى المقيتة .. وبعد دقائق سألته :

- « هل تعرف من أين جئت بهذه الأدوات ؟ »

- « يا له من سؤال ! من قسم الجراحة طبعًا ! ماذا تحاول إثباته ؟ »

ازداد سرورى ، وفى أدب سألته :

- « سيدى .. هل لو لم يستجب أحد لمطالبكم ستقتلوننا جميعًا ؟ »

- « الجميع .. الجميع بلا استثناء ! »

كان يزداد عصبية فى كل ثانية ..

ملأت المحقن وشمرت ذراعه ، وأولجت الإبرة فى الوريد .. وضغطت المكبس .. قال لى وهو ينظر للجدار :

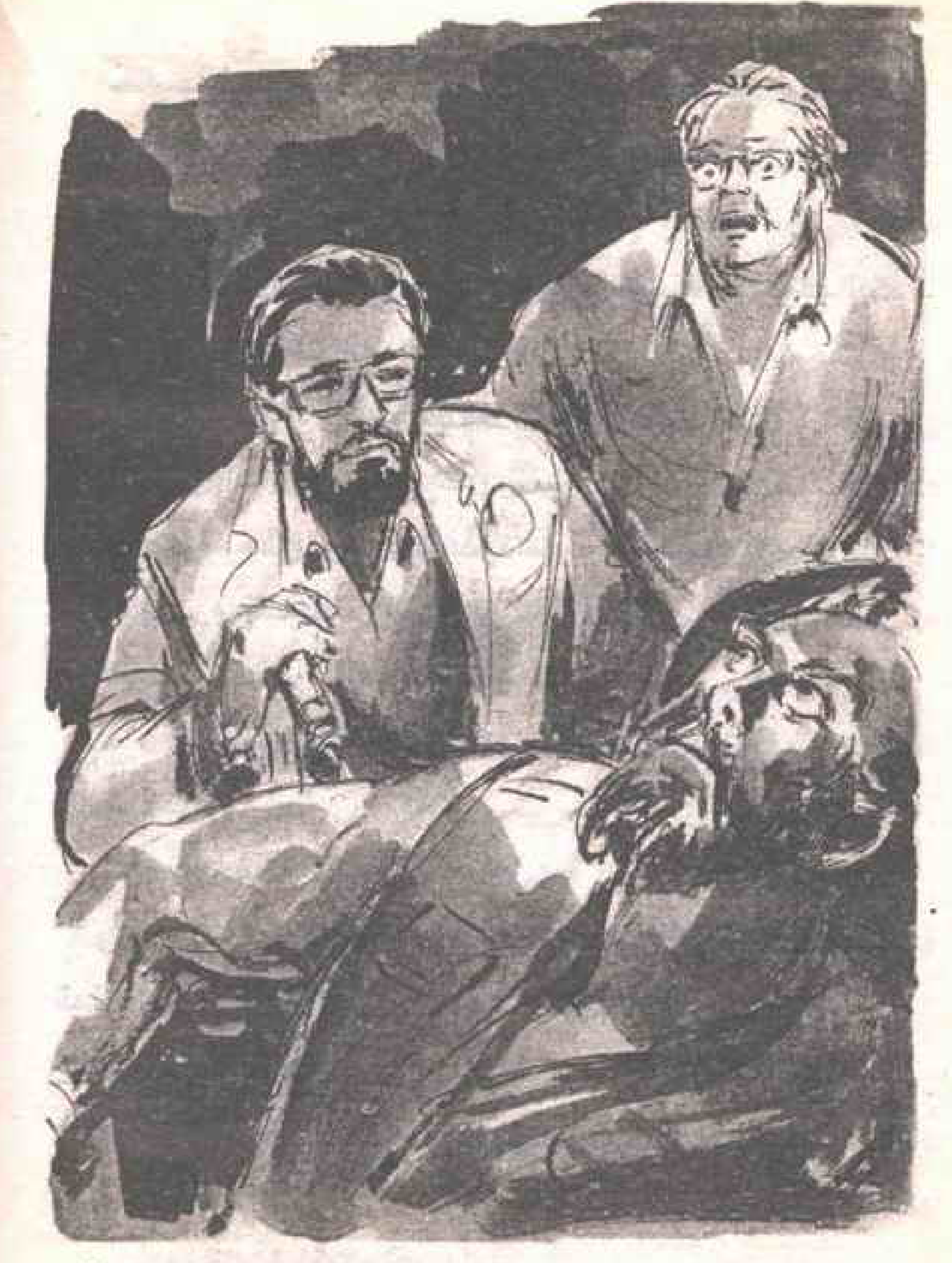
- « أنا أثق فيك يا دكتور .. لهذا لم أطلب رأى واحد آخر .. »

- « هذه ثقة غالية .. »

وأفرغت المحقن كله ، ثم انتزعت الإبرة فى الوقت المناسب لألمح وجهه الذى تصلب ، وعينيه اللتين زاغتا تمامًا ففقدتا بريق الحياة ..

هتف المدير فى هلع وهو يجفف العرق المحتشد على جبينه :

- « ويحك ! لقد مات ! »



وأفرغت المحقن كله ، ثم انتزعت الإبرة فى الوقت المناسب ؛ لألمح وجهه الذى تصلّب ، وعينيه اللتين زاغتا تمامًا ففقدتا بريق الحياة ..

تأملت الجسد الهامد ، وغمغمت وأنها أنهض :

ـ « طبعًا يا سيدى .. لا أحد يحتمل ثلاثة أمبولات وريدية من (الأدرينالين) ! ولا أظن أن فسيولوجية جسد هذا تختلف ! »

تقريبًا كاد يلطم خديه البدينين ، وهو يردّد :

ـ « لقد قتلت منقذنا وقتلتنا أيضًا ! »

ـ « بالعكس .. الرجل لم يترك لنا وسيلة أخرى .. كان يلعب دور الشرير (الجنتلمان) حتى صار تصادم المصالح محتومًا ، ولم يعد من سبيل سوى اختيار حياتنا أم حياته .. ولكن دعنا لا نضيع الوقت فى هذا الهراء ، فلدينا ما هو أهم .. »

وانتزعت جهاز التسجيل الخاص بالسكرتيرة من جيبى ، وأغلقت زرّ التسجيل ..

★ ★ ★

لم أستطع فهم أسلوب عمل جهاز (الووكى توكى) ، لكن المدير أفهمنى أن أضغط على الزر الأحمر لأتكلم ، ثم أتركه لأسمع ..

ابتلعت ريقى وجلست إلى المكتب .. هذه عملية تقتضى أكبر قدر من الدقة والتركيز .. لوحدث خطأ ما ..

وأعدت شريط التسجيل إلى بداية المحادثة منذ دخلت الغرفة ، وكان (بلاكلى) يتحدّث مع رجاله فى (الووكى توكى) .. ثم ينهرنى فى أثناء الغيار ويجيب عن أسئلتى الغريبة .. ثم ..

- « من قسم الجراحة طب ...... »

وضغطت على الزرّ الأحمر عندما بدأت الجملة ، ثم رفعته قرب نهايتها ، وبسرعة أعدت الشريط للوراء كى أذيع الجملة التالية :

- « الجميع ! الجميع بلا استثناء ! »

ومن جديد قطعت الاتصال .. لحسن الحظ أن الرسائل الصوتية فى جهاز الـ (ووكى توكى) تكون دائمًا متقطعة مشوشة بهذا الأسلوب .. وأعدت الشريط للوراء لتكون الجملة التالية :

- « افعل كما قلت لك ! هذا أمر فنفذه ! »

ورفعت إصبعى وأدرت الشريط للوراء .. لتكون الجملة النهائية التى تختم مكالمات اللاسلكى دائمًا :

- « روجر .. »(*)

كان المدير ينظر لى كأكبر أحمق رآه فى حياته ، وفى خمول سألنى :

- « ماذا تحاول عمله بالضبط ؟ »

- « أقوم بعملية (مونتاج) على الهواء مباشرة ، والآن آمل أن يصدقوا هذه الرسالة ، وألا يجيئوا إلى هنا للتحقق .. »

(*) لسبب مجهول يستعملون لفظة (Roger) فى نهاية المحادثات اللاسلكية ، لمجرّد الدلالة على حرف (R) فى لفظة (Received) ، أى أن الرسالة استقبلت وفهمت . ولا يمكن فهم لماذا لا يستعملون لفظة (Received) نفسها من البداية !

* * *

الأربعاء ١٩ أكتوبر
الساعة ١١,١٥ مساءً

ومع المدير تسللت عبر الردهة التى تقود إلى قسم الجراحة ..

واستطعنا أن نرى عددًا لا بأس به من هؤلاء القوم يحتشدون على الباب ، كلهم مسلّح وكلهم يتبادلون النظرات والتساؤلات ..

وسمعت من يقول :

ـ « غريب أن يريدنا فى هذه اللحظة بالذات .. »

ـ « من الواضح أنه مصرّ كذلك .. »

تبادلوا الآراء ، ثم تقدّم أحدهم ليدخل من الباب ـ يسمونه جناحى الوطواط ـ الذى ينفتح إذ تدفع جسدك عبره ، وينغلق وراءك .. وفى صمت تبعه الآخرون .. ترى هل اكتمل عددهم ؟

إن هناك ممرًا صغيرًا طوله أربعة أمتار يقود من الباب إلى الممر الطويل الذى يشكل قسم الجراحة ..

وكان ما حرصت على عمله حين كنت هنا وحدى ، هو أن كوّمت بعض أسطوانات الأوكسجين على جانبى هذا الممر ، وفتحت صمامات بعضها ..

ثم إننى هشمت عددًا من زجاجات الإثير ، ليفعم الغاز كريه الرائحة جو المكان .. غاز الإثير يُستخدم أحيانًا للتخدير ، لكنه كذلك من المتفجرات شديدة الوطء ، ولا يحسن أن تضايقه أبدًا ..

الآن أرى بوضوح الثلث العلوى لأسطوانة الأوكسجين التى حرصت على وضعها خلف الباب ، بحيث تظل بارزة فوق مستواه العلوى ..

لن أخطأها أبدًا ..

ربما كنت حمارًا فى التصويب .. لكنى لن أخطأها أبدًا ..

بالتأكيد سترتطم طلقتى بشىء ما ..

* * *

ورفعت مسدس (بلاكلى) وكتمت أنفاسى ..

وضغطت الزناد ..

* * *

كان الانفجار مريعًا ، وارتجت بناية (سافارى) التى لم تعتد هذا الصخب قط ..

لا بد أن أكثر الرجال لم يكن قد اجتاز الممر بعد ، حين وقع الانفجار المريع .. أسطوانات أوكسجين وغاز إثير ونخائر .. يا له من مهرجان للنيران !

لقد كفت (سافارى) منذ زمن عن استعمال أسطوانات الأوكسجين ، مكتفية بالأوكسجين المركزى الذى يجىء عبر أنابيب جدارية ، لكن تلك الأسطوانات الخمس ظلّت هنا على سبيل الاحتياط ، ولم يكن هذا قرارًا غبيًا ..

مرتجفًا هتف المدير :

- « والمرضى ؟ المرضى و (بسّام) ؟ ماذا عنهم؟»

- « كلهم بعيد عن هذا الصخب بالداخل يا سيدى.. فلا تخش شيئًا .. إن أعتى كوابيسنا يوشك على الانتهاء .. »

★ ★ ★

الخميس ٢٠ أكتوبر
الساعة ١٠,٠٠ صباحًا

طلبت منا قوات مكافحة الإرهاب ألا نغادر القاعة ، بينما راح رجالها يمشطون بناية (سافارى) .. كان هناك عدد لا يقلّ عن عشرة من المرتزقة مازالوا أحياء غير مصابين ، وقد كانوا مع الرهائن حين سمعوا الانفجار ، من ثم تركوهم ومرّوا من غير نظام ليحتموا فى مكان ما ..

أما الانفجار ، فقد أسفر عن ثمانية قتلى وعشرة جرحى كما يقولون فى النشرات الإخبارية ..

جلست جوار (برنادت) أصغى لصوت الطلقات بالخارج .. سألتنى وهى تتثاءب بعد يوم طويل عصيب :

- « ما زلت لا أفهم .. لماذا وثق بك الميجور لتحققه ؟ »

- « كانت فى طريقته دائمًا مسحة ما من إهمال

الحذر .. ربما لفرط ثقته بنفسه ، وربما لأن هيبة شخصيته تحدث نوعًا من التنويم المغناطيسى لدى من يتعامل معهم .. كان واثقًا بنفسه أكثر من اللازم ، ولو لم أستغل الفرصة لكنت أحمق .. »

ـ « وقتلت رجلاً أولاك ثقته ؟ »

ـ « لم يعد مجال لهذه الأخلاق الفروسية بعد ما قام به من مذابح .. سلى ضحيتيه (آرداش) أو الطبيب الكندى هذا السؤال .. لقد قتل (بلاكلى) ضحيتين بريئتين معدومتى الحيلة ، فصار من العدل أن أقتله أنا .. ولو عاش لما كنا هنا .. »

وساد الصمت هنيهة ، إلا من غطيط الأطباء الجالسين حولنا ..

الحقيقة هى أننى فى (سافارى) قتلت عددًا أكثر من اللازم من الأشخاص .. بدءًا بقراصنة الحرب الفيروسية ، ومرورًا بـ (دوبون) الذى كان يجرى تجاربه على المحتضرين ، وانتهاءً بـ (بلاكلى) نفسه ..

ليغفر الله لى .. لكننى ـ أزعم ـ فى كل مرة لم أكن أملك حلاً آخر ولا مخرجًا آخر ..

كلهم وضعونى فى الموقف العتيد : حياتنا أو حياتك .. ولم يكن الاختيار مطروحًا أو واردًا ..

سألتنى (برنادت) بصوت ناعس ، وهى تعتدل فى جلستها :

ـ « هل نحن فى أمان الآن ؟ »

ـ « حتمًا .. إن أمر هؤلاء بالخارج قد انتهى تمامًا .. لن يقاوموا أكثر من ساعة أخرى ، خاصة أنهم فقدوا رأسهم المفكّر المتزن ثاقب البصيرة .. لقد شعرت فى لحظة ما بميل نحو (بلاكلى) ، لكنه ـ كما قلت ـ قد اختار المعسكر الخطأ .. لقد ولد خاسرًا وأحسبه كان يتوقع دومًا نهاية كهذه .. »

ثم وجدت أننى أكلم نفسى لأنها قد نامت بالفعل ..

نامت وهوى رأسها على كتفى ..

نامت و ...... ماذا كنت أريد قوله ؟

لقد نمت أنا بدورى !

* * *

وفى الخارج كان رجال الجيش يحصون القتلى والجرحى ، وفى كل مرّة كان العدد ثابتًا : ستة وعشرون رجلاً ..

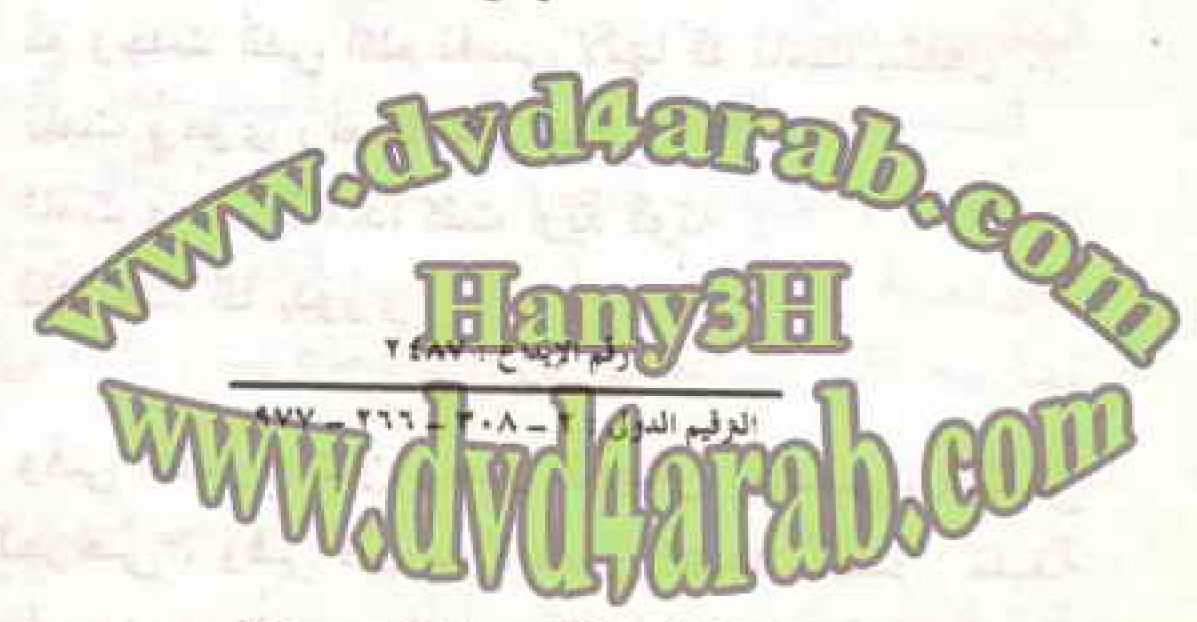
ـ « هؤلاء هم الفصيلة بأكملها يا سيدى .. »

ـ « يصرَ الأطباء على أن العدد ثلاثون .. أعيدوا البحث جيدًا .. »

ويعاودون البحث جيدًا ، لكن لا أثر للأربعة المرتزقة الذين يكتمل بهم النصاب .. أين ذهبوا وماذا ينتوون عمله ؟ »

حقًا من العسير أن نعرف هذا فى (سافارى) .

د. علاء عبد العظيم
أنجاوانديرى



رقم الإيداع : [illegible] ٢٤٨٧

الترقيم الدولى : [illegible] ٢ ـ ٠٨ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة

٨ ، ١٠ شارع ١٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة - ت ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

روايات مصرية للجيب

سافارى

مغامرات طبيب شاب يجاهد لكى يظل حيا وكى يظل طبيبا

الفصيلة

فى الآونة الأخيرة تزايدت حالات مرضية من نوع فريد فى (سافارى) .. المريض الأوروبى قوى البنية الذى لا يشك من أى داء! .. لن تلاحظ شيئًا لو كان الأمر يتعلق بمريضين .. ربما تندهش لو رأيت عشرة مرضى .. لكنك - حتمًا - سترتجف هلعًا حين ترى ثلاثين مريضًا، كلهم بلا مرض معين ..!

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

مطابع العالم العربى

العدد القادم